حادثة دنشواى
وصداها فى الأدب العربى الحديث والصحافة العربية
دكتور محمد حامد شريف

حادثة دنشواى

وصداها فى الأدب العربى الحديث والصحافة العربية

دكتور محمد حامد شريف



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٦

شريف ، محمد حامد

حادثة دنشواى وصداها فى الأدب العربى والصحافة العربية / محمد حامد شريف. ــ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٦.

٢٠٠ ص ؛ ٢٨ سم.

تدمك ٤ ٤١٤ ٤١٩ ٩٧٧

١ ــ المعارك فى الأدب العربى

٢ ــ مصر فى الأدب العربى

٣ ــ دنشواى ــ تاريخ

(أ) العنوان :

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٨٣٥ / ٢٠٠٦

I.S.B.N 977 - 419 - 414 - 4

ديوى ٨١٠,٩٠٣١

الإخراج الفني

مرفت النحاس

إهداء



إلى من استنهضت همم المعرفة..وأشعلت جذور الثقافة فى حياة الأجيال..

السيدة الفاضلة/ سوزان مبارك

التى أحيت ذكرى دنشواى ومتحف دنشواى ليظل منارةً تروى يقصة كفاح ابناء المنوفية، ونضال الشعب المصرى العظيم أهدى لسيادتها هذا العمل التاريخى فى الذكرى المئوية الأولى لحادثة دنشواى/ يونيو ٢٠٠٦م

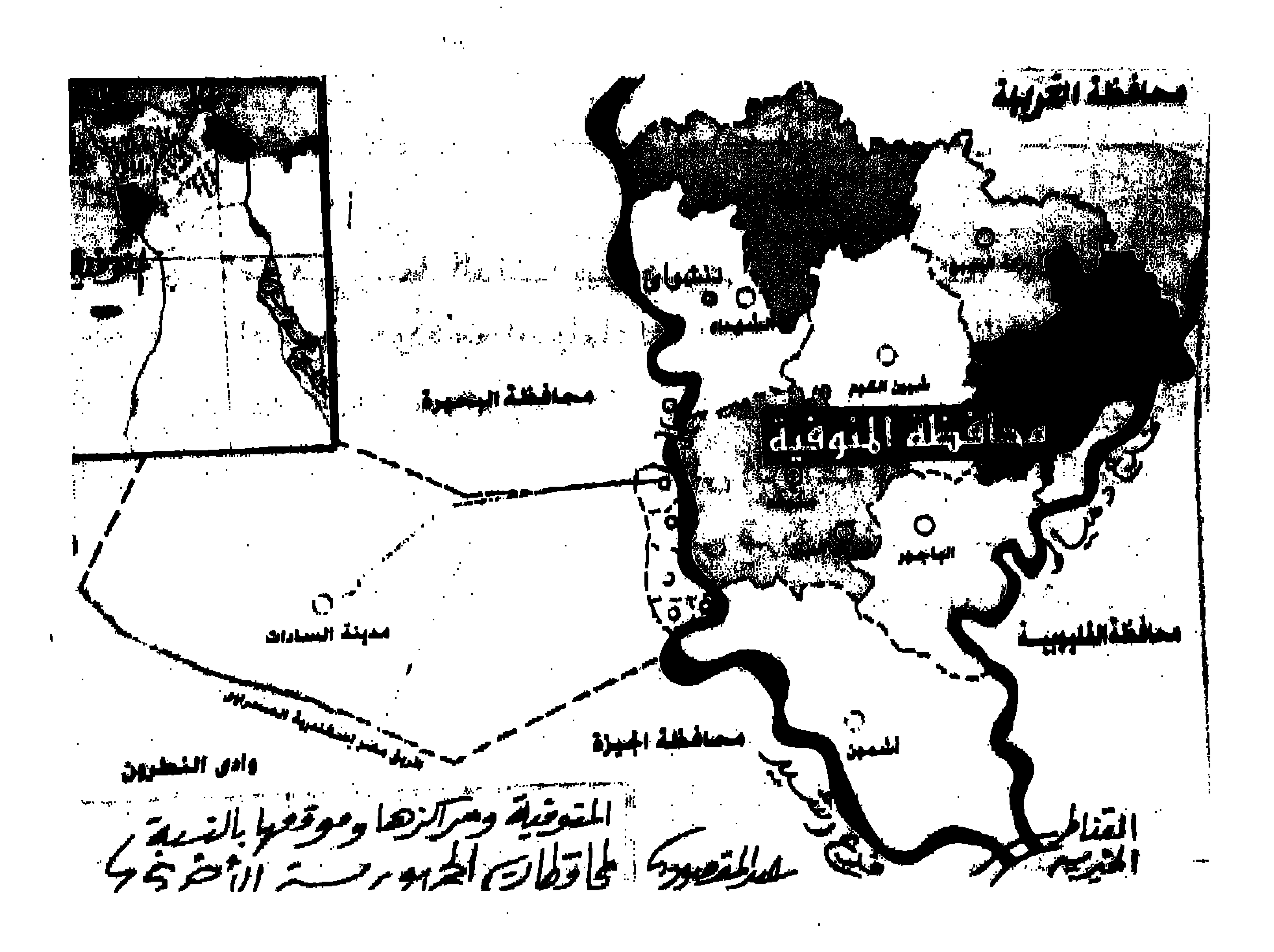
وفاءً.. وعرفاناً.. وتقديراً ،،،

د/ محمد حامد شريف

أستاذ الأدب والنقد بكلية الدراسات

جامعة الأزهر بدمياط

عبدالمقصود السعيد عبدالمقصود



المنوفية ومراكزها وموقعها بالنسبة لمحافظات الجمهورية الأخرى عبدالمقصود

أطلعت على هذا البحث المقدم من الأستاذ الدكتور/ محمد حامد شريف بعنوان (حادثة دنشواى وصداها فى الأدب العربى الحديث والصحافة العربية)

فسعدت به وهو يسلط الأضواء على تلك الحادثة التاريخية الغالية، وقد نقّب الدكتور عن هذه الحادثة بلغة أدبية سلسة وأسلوب رصين وتسلسل تاريخى وتحليل أدبى ومهارة وصبر عُرف به فى عطائه الفكرى ليُخرج لنا درَّة يشارك بها فى احتفال مصر بالذكرى المئوية الأولى لحادثة دنشواى (يونيو ١٩٠٦م - يونيو ٢٠٠٦م) لتظل ماثلة فى أذهان الأجيال وضمير الأمة العربية وهى تواجه التحديات القاتلة «وما أشبه الليلة بالبارحة»!

وقد رأيت من باب إتمام الفائدة أن أضيف كلمة عن محافظة المنوفية:

فهى تقع فى وسط الدلتا بين فرعى النيل مما كان له أثر فى خصوبة أراضيها وجودة محاصيلها؛ لذا أطلق عليهاروضة البحرين!

شعار المحافظة: ويتكون من (أبراج الحمام) الذى تشتهر بتربيته قرية دنشواى ومن (السنبلتين) رمزًا إلى الزراعة والخصب والنماء، ومن (اللهب) إشارة إلى ثورة الفلاحين فى قرية دنشواى ضد الاحتلال الإنجليزى الذى أشعل النيران فى أجران القمح عام ١٩٠٦، ومن (الترس) زمزًا إلى النهضة الصناعية بالمحافظة.

عاصمة المحافظة: هى مدينة شبين الكوم وكانت العاصمة من قبل هى مدينة منوف أو المنوفية التى عرفت بنشاطها التجارى منذ عهد بعيد وقرية دنشواى: تابعة لمدينة الشهداء ويرجع تسميد المدينة إلى العصر الإسلامى حيث استشهد على أرضها عدد من القادة والجنود العرب عند فتح المسلمين لمصر وتخليصها من حكم الرومان،وكان على رأس المجاهدين: سيدى «محمد شبل بن الفضل بن العباس عم

الرسـول صلى الله عليـه وسلم ومتـحف دنشـواى: من أهم المعـالم السياحية بالمحافظة ويضم كثيرًا من الوثائق والصور التاريخية النادرة التى تحكى قصـة الكفاح ضد الاسـتعمـار وبعض الصـور والتماثيل لشهدائها وقد ظل مغلقًا قرابة عشرين عاما إلى أن تمَّ إعادة بنائه على أحدث مستوى ثم افتتحته السيدة الفاضلة/ سوزان مبارك فى يونيو ١٩٩٩م وأخيرًا أحيىِّ هذا العمل وهذا الوفاء راجيًاالقبول والتوفيق.

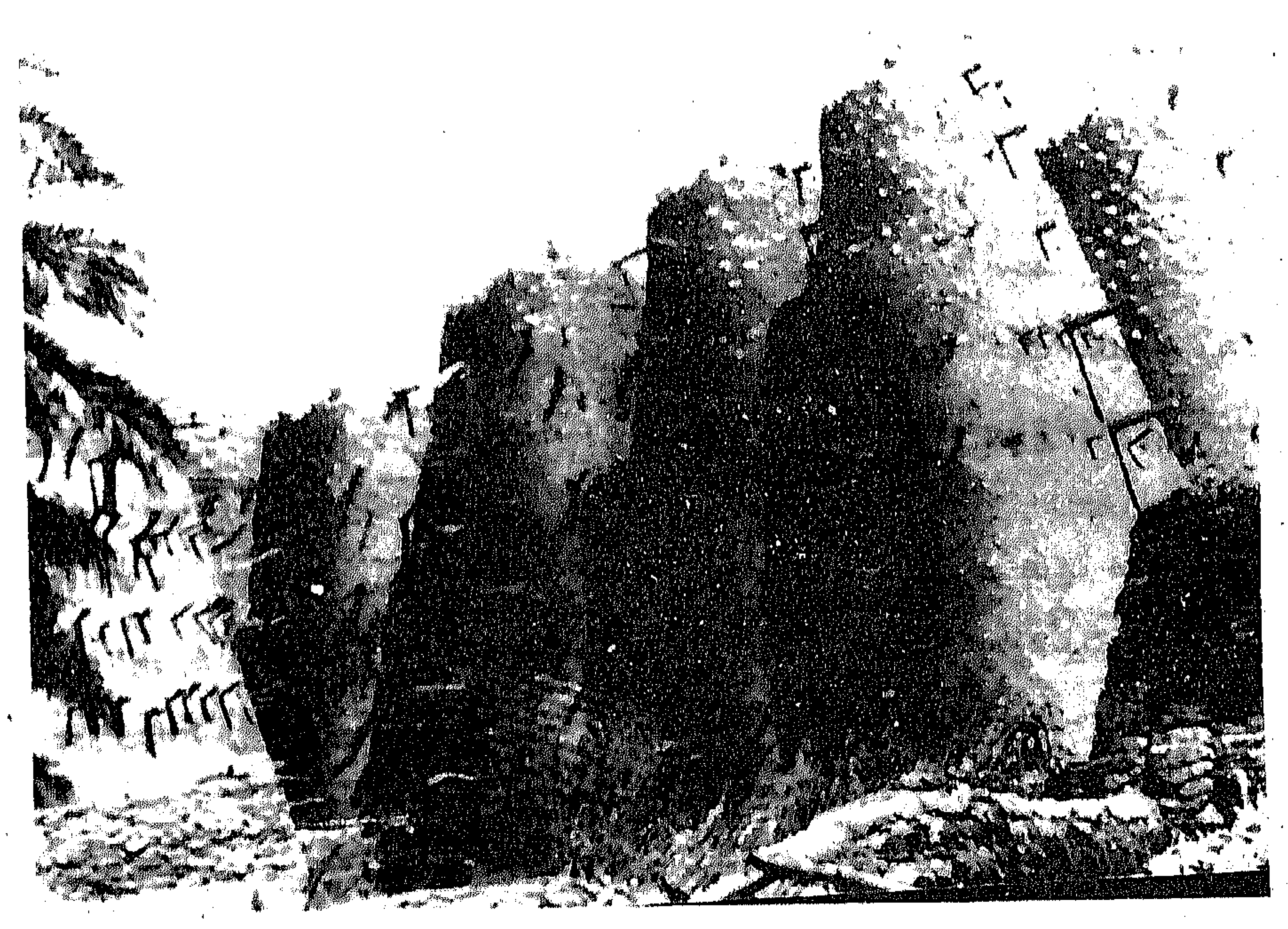
عبدالمقصود السعيد

تقـديم

الحمـدلله رب العـالمين - والصـلاة والسـلام على أشـرف المرسلين سيدنا محمد بن عبدالله رافع أعلام البلاغة وحامل ألوية الفصاحة رسولنا منبع البيان والمؤدب بالقرآن وعلى آله وصحبه أجمين - وبعد :

ففي ظل الاحتلال الإنجليزى الذى رزحت مصر تحت أعبائه زمنًا طويلاً، وعانت ما عانت من الذل والخسف والاستعباد، وقعت (حادثة دنشواى) التى هزَّت الضمير العالمى وأثارت مشاعر المصريين بالنقمة والسخط مما أدى إلى تطور الحركة الوطنية التى ظهر فيها ما يخفيه الشعب من بغض وكراهيـة لذلك الاحتـلال.... وكمـا هـزت الحـادثة الضمـيـر العـالمى والشعور المصرى أطلقت أقلام الكتاب والخطباء وانطلقت أفـذاذ الشـعـراء بالشكوى والأنين والثورة والغضب.كان من ذلك كله رصيد كبير من المقالات والخطب والأشعار يستحق الدراسة ويسـتوجب العناية لأنه صـورة صـادقـة تعبـر عن مـشـاعـر مكلومة وأحاسيس ملتهبة وقلوب يعتصرها الألم، ولهذا اتجهت إلى دراسة هذا الموضوع فتتبعت مـا قيل فيه ورجعت إلى مختلف الدواوين والدوريات والجـرائد والمجـلات حتى استطعت - بعون الله - أن أجمع كثيرًا من ألوان الأدب الذى كان صدى لهذا الحادث المشئوم.. ولقد وقفت عند أشهر شاعرين عاصرا هذا الحادث فوازنتُ بينهما موازنة فنيةً تكشف عن خصائص كل منهمـا ... ولا أعنى الرأى الفيصل فى كل أشعارهما

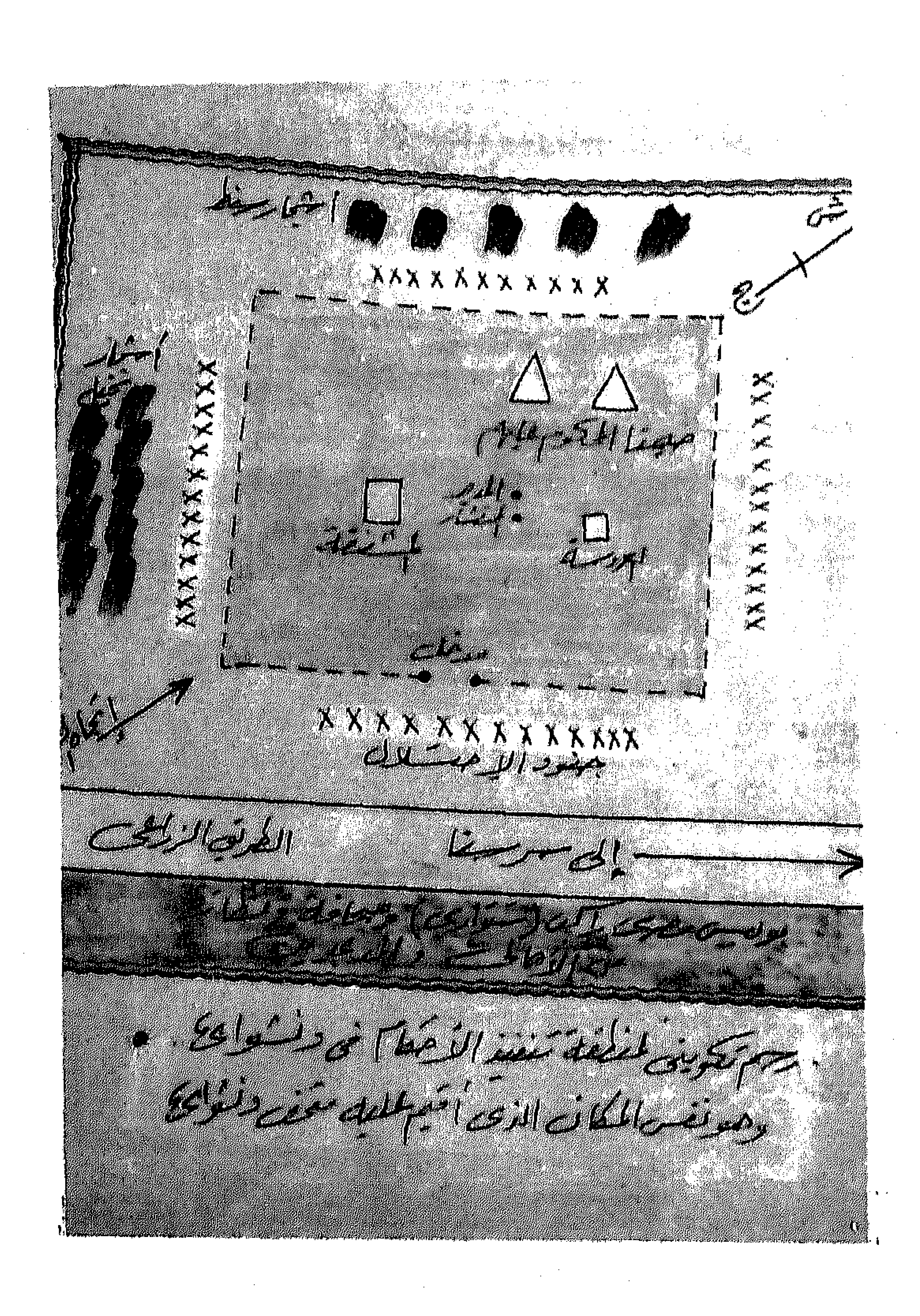
ولكنه رأى خاص بهاتين القصيدتين وفى تلك الحادثة الوطنية، كما عرضت فى فصل خاص لصدى الحادثة عند بقية الشعراء الآخرين على اختلاف مناهجهم. وقد رجعت إلى دواوينهم ما أمكن ذلك وإلا فلا مناص من الدوريات والرجوع إلى ما تمزق من المجلات، واستحق الشاعر «أحمد محرم» فى هذا الفصل مكان الصدارة لمواقفه وإنتاجه العظيم.



ـ صوره تاريخية ابراج الحمام بدنشواي اثناء احداث عام ١٩٠٦م

ثم رتبتُ من بعده الشعراء على قدر مكانتهم الأدبية مراعيًا إنتاجهم الأدبى ونوعيته فى هذا الصدد فقدمت القصائد التى حافظ فيها أصحابها على عمود الشعر العربى وعلّقتُ على معظم القصائد بما يكشف عن مضمونها العام ثم وقفت على ما تفرق من أبيات لأشبال الشعراء من شتى الجهات وجعلت لها عنوان (متفرقات شعرية)، ثم

أتبعت ذلك بما قدمه الشاعر المصرى «صلاح عبدالصبور» من نموذج حيٍّ من الشعر الحديث. ثم أتبعت بمسرحية شعرية لأحد مسجونى دنشواى كما عرضتُ للصحف المصرية التى تمثل صحافة العرب حينذاك، وما فيها من المقالات والخطب التى كانت صدى للحادثة..



وبهذا يتضح أن الحادثة أغنَتْ الأدبَ شعرَه ونثَره بما جادت به قرائح الكتاب من معان وصور، ومن الأمانة العلمية أن أشير إلى أن كثيرًا مما جمعته من أبيات لم تُضبط بالشكل فى مصادرها حيث جمعتها من الجرائدوالمجلات، وهذا ما قمتُ به حسبَ فهمى لها، ولعلها إضافة تعين على فهم ذلك النتاج الأدبى الخالد راجيًا أن أكون قد قَدَّمتُ فائدة جليلة لتاريخ أدبنا العربى والإسلامى،،،

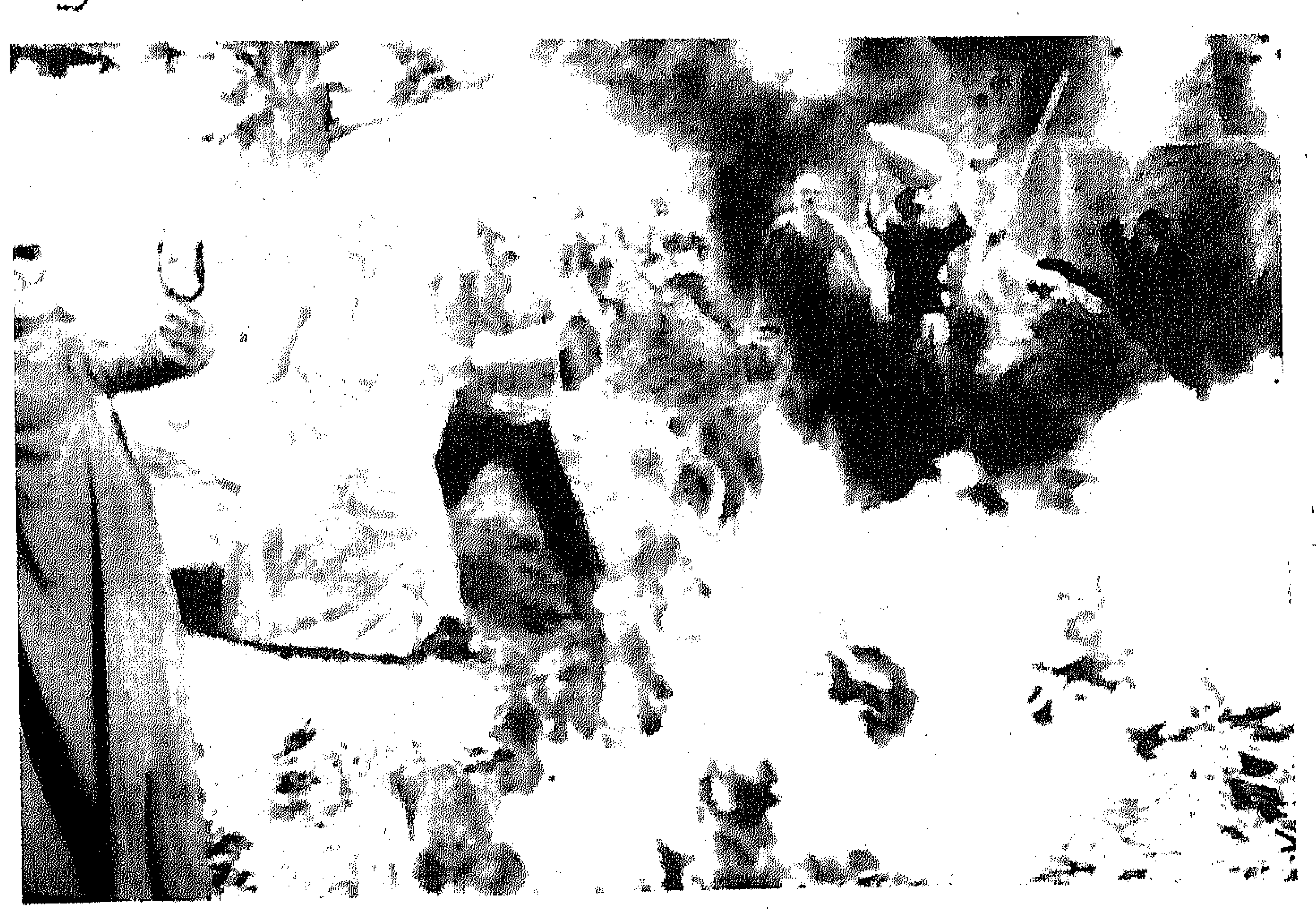
﴿وما توفيقى إلا بالله عليهِ توكلتُ وإليه أُنيب﴾

شوال ١٤١٧ هـ

المنصورة فى فبراير ١٩٩٧م

دكتور

محمد حامد شريف



الفلاحون يطفئون النيران بأجران القمح

تمهيد

حادثة دنشواى تاريخياً

ـ ١ ـ



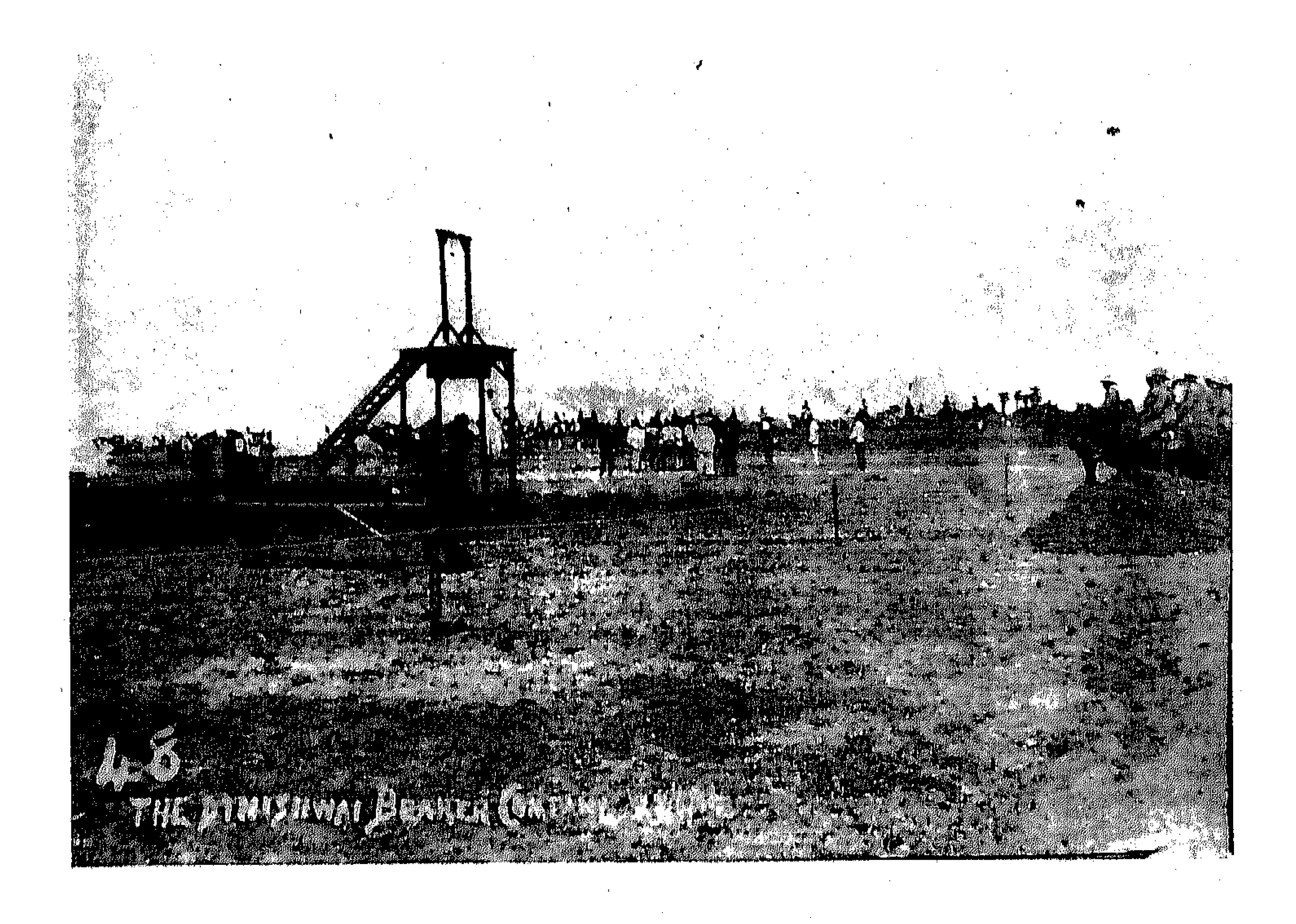
كان من عادة البريطانيين التجول فى بعض القرى بقصد الصيد، وفى يوم الإثنين الموافق (١١ يونية عام ١٩٠٦) غادرت كتيبة من نحو

(١٥٠) مائة وخمسين جنديًا بريطانيًا القاهرة واتجهت بطريق البر إلى الإسكندرية وظلت فى مسيرتها يومين حتى وصلت إلى منوف وذلك يوم الأربعاء الموافق (١٣ يونية) فأبلغ خمسة من ضباط الكتيبة مأمور المركز هم يرغبون الصيد فى بلدة «دنشواى» وهى من قرى مركز شبين الكوم وهى تُعرف بكثرة حمامها. واتفق أن حمامتين كانتا واقفتين على جرن مملوك للشيخ «محمدعبدالنبى» مؤذن القرية وكان يشتغل به حينئذ «شحاتة عبدالنبى»، فجاء أحد الضباط الإنجليز وصوب بندقيته على الحمام فصاح به شيخ طاعن فى السن يبلغ الخامسة والسبعين من العمر اسمه (حسن على محفوظ) (وهو أول من حكمت عليه المحكمة المخصوصة بالإعدام) طالبًا منه أن يكف عن إطلاق البندقية وإلا احترق الجرن ولكن دون جدوى إذ لم يعبأالضابط وأطلق أحدهم العيار قاصدًا إصابة الحمام فأخطأالمرمى وأصاب امرأة تدعى أم محمد «زوجة محمد عبدالنبى المؤذن»، فسقطت المرأة جريحة تتخبط فى دمها، واشتعلت النار فى الجرن وأقبل الرجال والنساء والأطفال هائجين «الخواجة قتل المرأة» الخواجة قتل المرأة وحرق الجرن وأحاطوا بالضباط، وجاء بقية الضباط الإنجليز لإنقاذ زميلهم فتكاثر جمع الأهلين.

فتوهم هؤلاء الضباط أنهم جاءوا يريدون بهم شرا فأطلقوا عليهم العيارات النارية فأصاب واحد منهم شيخ الخفراء فى فخذه، فسقط على الأرض جريحًا، وأصاب عيار آخر اثنين أحدهما من الخفراء فصاح الجميع (شيخ الخفر قتل - شيخ الخفر قتل).



وحملوا على الضباط بالطوب والعِصِىّ الغليظة وأثخنوا من لحق بهم ضربًا وأخذوا منهم أسلحتهم وحجزوهم حتى جاء ملاحظ بوليس النقطة وأوصلهم إلى المعسكر.(١) بقى الطبيب البيطرى الإنجليزى والكابتن «بول» وقد أخذ الاثنان يعدوان حتى قَطَعا ما يقرب من ثمانية كيلومترات.... ولما كانت حرارة الشمس قائظة، ولفحتها قاسية، وكان الكابتن بول قد أصيب فى رأسه أثناء الحادثة. فلم يكد الكابتن «بول» يصل إلى «سرسنا» حتى سقط طريحًا على الأرض.. ثم تلفظ أنفاسه الأخيرة متأثرًا بضربة الشمس ولم يجد زميله بدًا من أن يتركه ليبلغ معسكر الكتيبة، وما كاد يطير الخبر إليهم حتى سارع الجنود إلى مكان الواقعة فوجدوا ضابطهم ملقى على الأرض وعمدوا إلى القبض على من يرونه من الفلاحين، أما الفلاح «سيد أحمد سعيد» فكان يتقدّم إلى ضابطهم قدحًا من الماء وظنوه من المعتدين فقصدوا التشفى منه فأخذوا عليه ببنادقهم طعنًا ووخزًا حتى هشموا رأسه فأصبحت أكبر قطعة من جمجمته كحجم المليم(٢).



شهيد «سرسنا» سيد أحمد سعيد يعامل بوحشية من جنود الاحتلال لأنه سقى الضابط «بول» ماءً وهو فى النزع الأخير من حياته، كما تخيله الفنان المصرى.

كما غلى الدم فى عروق البريطانيين فحشدوا كل قواهم بين يوم وليلة فى مصر وأخذوا يثيرون الرعب والهول بين أهل البلاد ونفذت قواتهم ذلك المخطط الإجرامى فشنقت وجلدت واشتقت من كل مصرى فى صورة (دنشواى) الخالدة. وفى يوم الأربعاء الموافق ٥ جمادى الأولى سنة ١٣٢٤هـ ٢٧ يونية ١٩٠٦م الساعة الثانية والنصف ظهرًا عُقدت المحكمة السالفة الذكر.



وفى اليوم التالى الموافق (٢٨ يونية ١٩٠٦) سيق المتهمون إلى نقطة الشهداء زمرًا، ﴿حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها﴾ وامتلأت سجونها ونفذ اللصوص فيهم الحكم فى نفس الوقت بل وفى المكان نفسه الذى قتلت فيه الشمس الكابتن بول. ولعله من العجيب - والعجيب المخزى - أن تُعلن صحيفة (المقطم) - الموالية لهولاء الظالمين - يوم ١٨ يونيه عن إرسال المشانق إلى مكان الحادثة قبل أن ينتهى التحقيق..!! الشىء الذى جعل الجميع يتوقع أن الأحكام ستكون صارمة، وما التحقيق إلا مهزلة تاريخية بينها وبين العدل بونًا شاسعًا...

وقبل انقضاء سبعة أيام على وقوع الحادثة أصدر - بطرس غالى باشا - وزير الحقانية، بالنيابة حينئذ أمرًا بتشكيل المحكمة بتاريخ (٢٠ يونية سنة ١٩٠٦) على أن يكون رئيسًا لها وأن تؤلف أعضاء المحكمة على النحو التالى:

- المستر بوند/ وكيل لمحكمة الاستئناف الأهلية.
- المستر وليم جود/ نائب المستشار القضائى بالنيابة.
- الكولونيل لادو/ القائم بأعمال المحاماة والقضاء فى جيش الاحتلال.
- السيد أحمد فتحى زغلول باشا/ رئيس محكمة مصر الابتدائية.
- السيد عثمان بك مرتضى/ سكرتير محكمة مصر الابتدائية.
- وأن يكون انعقادها يوم الأحد الموافق ٢٤ يونية سنة ١٩٠٦م بشبين الكوم.

الجدير بالذكر: أن المحكمة لم تترك إلا ثلاثين دقيقة لاثنين وخمسين متهمًا ليقولوا ما عندهم، وأبت سماع أقوال رجال البوليس وبنت الحكم على تأكيد الضباط المتسببين فى الحادثة.. !! وعجبًا وأى عجب.. أن يُبنى الحكم على رأى أحد الخصوم كما كان التحامل على المتهمين واضحًا. واستمر التهكم والتقريع أثناء الإدلاء. ولعل ما نأسف له جميعًا أن يكون الكاتب لصيغة الحكم هو: أحمد فتحى زغلول (شقيق الزعيم الوطنى سعد زغلول) رئيس المحكمة الأهلية «الابتدائية» ولذلك عينه كرومر فيما بعد وكيلاً لوزارة الحقانية تكريمًا له.(٢)

٢٠

وجاء فى نص الحكم: بعد الاطلاع على المواد الرابعة والخامسة والسادسة من الأمر العالى الرقيم «٢٥ فبراير عام ١٨٨٥» حكمت المحكمة حضوريًا حكمًا لا يقبل الطعن:

أولا: على: حسن على محفوظ - يوسف حسين سليم - السيد عيسى سالم - محمد درويش زهران. بالإعدام شنقًا فى قرية دنشواى..!!

ثانيًا على: محمد عبدالنبى «المؤذن» - أحمد عبدالعال محفوظ. بالأشغال الشاقة المؤبدة..!!

ثالثاً على: أحمد السيسى. بالأشغال الشاقة ١٥ سنة ..!!

رابعًا على: محمد أبوسمك - عبده البقلى - على على شعلان - محمد مصطفى محفوظ - رسلان السيد على - العيسوى محمد محفوظ. بالأشغال الشاقة سبع سنين..!!

خامسًا على: حسن إسماعيل السيسى - إبراهيم حسنين السيسى - محمد السيد على. بالحبس مع الشغل سنة واحدة، ويجلد كل واحد منهم خمسين جلدة، وأن ينفذ الجلد - أولاً - بقرية دنشواى..!!

سادسًا على: السيد الفولى - غريب عمر محفوظ - السيد سليمان خير الله - عبدالهادى حسن شهيد - محمد أحمد السيسى. بجلد كل واحد منهم خمسين جلدة بقرية دنشواى أيضًا..!!

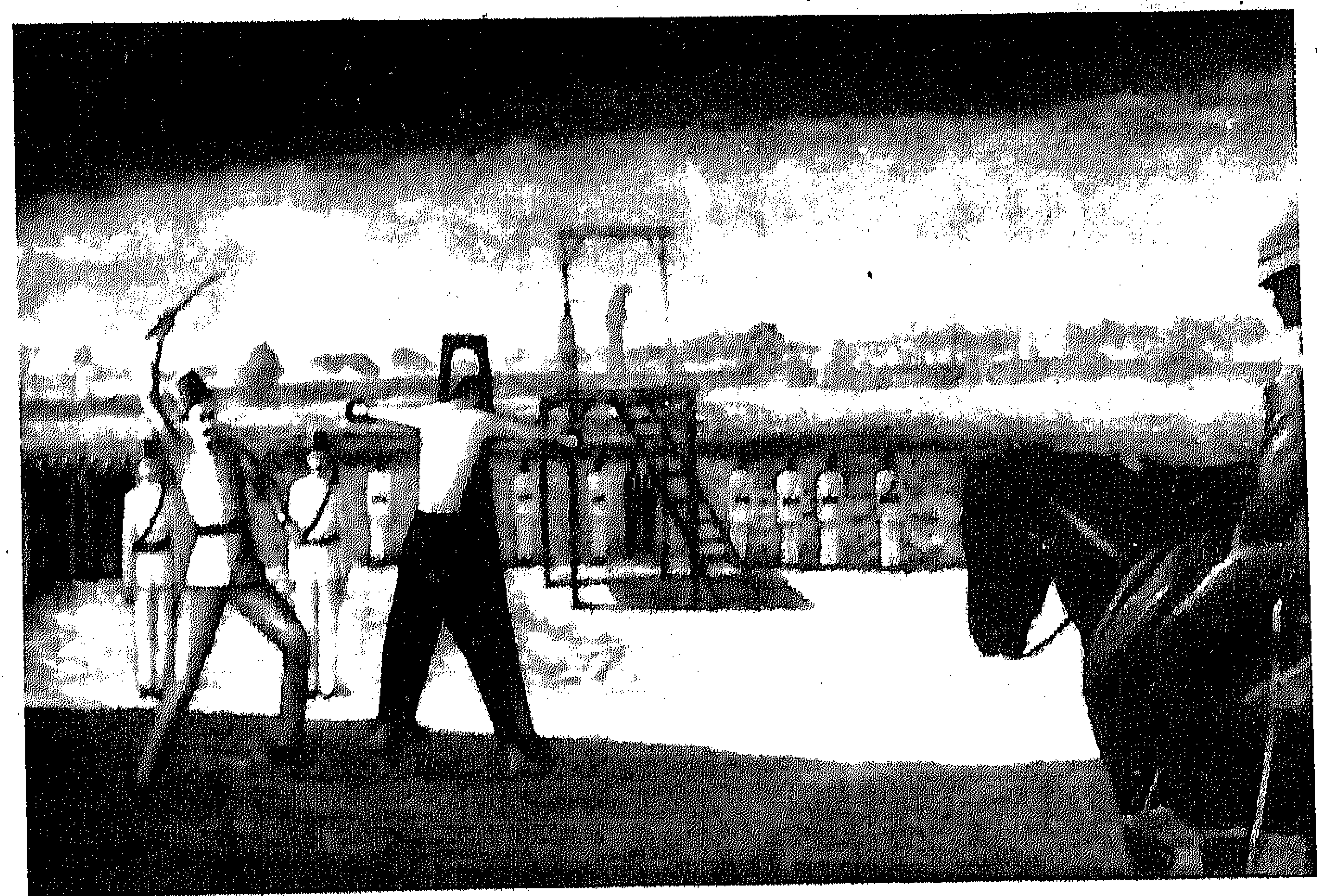
سابعًا على: براءة باقى المتهمين إن لم يكونوا محبوسين لسبب آخر، وعلى مديرية المنوفية تنفيذ هذا الحكم فى اليوم التالى ٢٨ يونية..!!(٤).



٣.

... حقًا إنها نقطة سوداء فى تاريخ القضاء المصرى فالمدة بين وقوع الحادث والتحقيق وعقد الجلسات والدفاع وصدور الأحكام وتنفيذ الشنق والجلد والإعدام لم نستغرق أكثر من خمسة عشر يومًا...!! ونفذ الشنق علنًا على مرأى ومسمع من أهل القرية وبين صراخ النساء وعويل الأطفال وأنين الثكالى والضعفاء..!!

وقول المحكمة: «حكمًا لا يَقْبل الطعن» قول أثار انتباهى إلى الفارق الكبير بين هذه المحكمة العسكرية والمحكمة العادية - فالمحكمة العادية يُتوقع فيها العدل، أما مثل هذه المحكمة العسكرية فهى دائمًا ظل الحاكم والحالة السياسية للبلاد، وغالبًا ما تتسم بالقسوة؛ ولذا قد اختاروا المحكمة العسكرية؛ ولهذا لا تعجب أن يكون «حكمًا لا يقبل الطعن» أو لا تترك المحكمة للشهود وقتًا كافيًا، أو أن تُرسَل أدوات الشنق والتعذيب قبل الحكم....!!(٥)



إبراهيم الهلباوى:

وفى تلك المحكمة العلنية استمع القضاء إلى مرافعة المحامى عن الإنجليز ومن هو يا تُرى الذى يتخلى عن الأمانة فيخون الرسالة ويدافع عن المجرمين؟؟

ما أظنه والله إلا خائنًا لئيمًا وما أحسبه إلا شريكًا لتلك العصابة، ولعلنا نعجب كل العجب إذا علمنا أنه «إبراهيم الهلباوى» المحامى العربى المصرى الذى وقف ضد أرضه التى أنجبته وخصمًا لبنى جلدته..!

تنفيذ أحكام الجَلد فى الأبطال كما تخيله الفنان المصرى

(لقد قام ذلك الخائن فاستلَّ لسانه وباع بلده بمكافأة حقيرة قدرها ثلاثمائة جنيه)[٦] فدنَّس بها عرضه إلى يوم الدين واستمطر بها لعنات الله والملائكة والناس أجمعين.. لقد تنكر «الهلباوى» لأصله المصرى ونسبه العربى ثم لعلمه الأزهرى فكفر بما أفاض عليه الأزهر من ولاء ونعم ولاسيما إذا علمنا أن شيخ الأزهر «الشيخ محمد عبده» كان أول المتسببين فى خروجه من وهدة الفقر إلى إحدى الوظائف فى جريدة الوقائع،كما تنكر لما استفاده من «جمال الدين الأفغانى مدة إقامته بمصر» إذ تمرن خلال هذه المدة على الكتابة والخطابة، وولع بالأدب والسياسة بعد أن كان بعيدًا عنها فى مبدأ أمره.[٧] وامتد به العمر ليرى عيون الناس تقذفه وتلعنه ثم ضاع ماله حتى عرفه الفقر وانفض من حوله ذووه حتى مات ذليلاً كسيرًا .[٨]

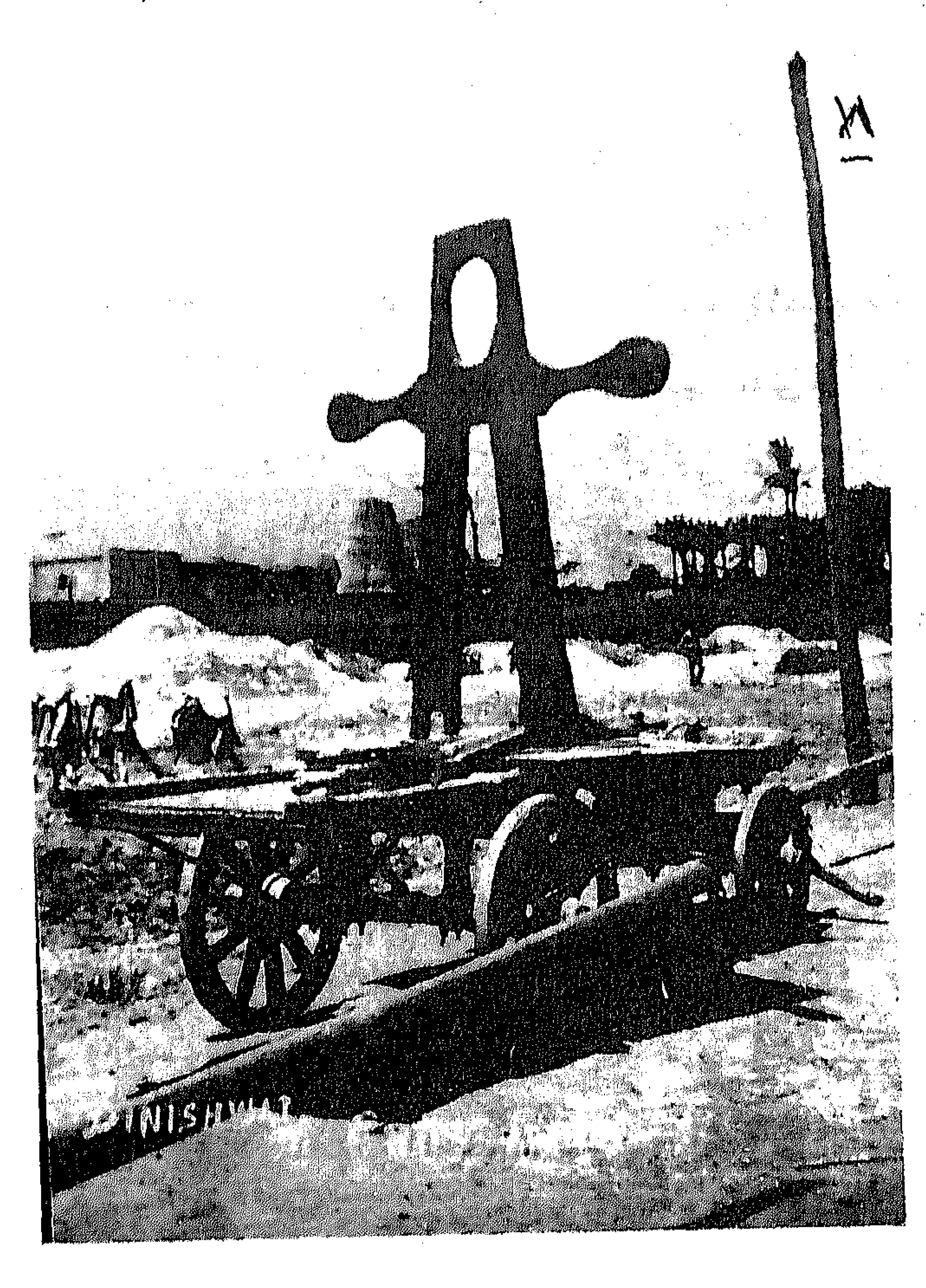
هكذا هبط الهلباوى بمهنة المحاماة ومهمة المدعى العمومى - سياج العدالة - متحديًا شعور المصريين ونسى أن ذريته من بعده ستعير

بموقفه هذا إلى أن يشاء الله. وإلى هذا المعنى أشار حافظ إبراهيم متهكمًا»

أيها المدعى العمومّى مهلاً	بعض هذا فقد بلغتَ المرادا
قد ضمنا لك القضاء بمصر	وضمنا لنجلك الإسعادا

إلى قوله:

إيه يا مُدره القضاء ويا من	سَاد فى غفلةِ الزمان وشَادا



هكذا وقف الهلباوى فى الوقت الذى رفض فيه كثير من المحامين القيام بتلك المهمة لاسيما الأستاذ «أحمد عبداللطيف» المحامى الذى اشترط عدم التقيُّد بالتحقيقات وأن يكون حرًا فى طلباته..

.٥.

جاء فى وصف آلة التعذيب أنها: «عبارة عن قائمتين من الخشب متصلتين من الأعلى بفتحة تسمح بدخول رأس المُعذَّب.. وعلى القائمتين الخشبيتين تُشَدُّ رجلاه، ويتصل بهذه الآلة عضّادتان فيتكون حينئذ من مجموع القائمتين شكل صليب ويمد الذراعان على هاتين العضادتين ثم تشد إليهما اليدان.. أما آلة الجلد فكانت سوطًا من الخشب وله خمس شعب من الأحبال الرفيعة وينتهى كل حبل منها بعقدة، ونصبت بجانب آلة التعذيب مضخة أُعدت لغسل المشنوقين بعد موتهم.(٩)

فياسبحان الله!! لقد فاق التعذيب والتنكيل ما يتوقعه المتشائمون وقد وصف الأستاذ: جورج طونوس مندوب إحدى الصحف اليومية والذى شاهد تنفيذ الحكم بقوله:

لقد رأينا وليتنا مارأينا	طللاً بالياً ورسمًا فناء
ونساء تدعوا ابكى بنيَّها	وبنينًا تستنجد الآباء
ونساء تدعوا الرجال ولكن	ليس فيهم من يجيب النداء
وعويًا وأنّه ويكاءً	تلك حال تُقطِّعُ الأحشاء

ولعل القارئ يتساءل: ومن المسئول حينئذ عن أرواح هؤلاء الأبرياء؟ ولعل ما يفصحُ عن هذا التساؤل: أن ألقى الضوء على مسئولى مصرفى تلك الحقبة الغابرة:

(فأما حاكم البلادحينئذ فهو الخديو عباس حلمى بن الخديو توفيق ولد فى ١٤ يولية سنة ١٨٧٤م وتولى عرش مصر (من ١٨٩٢ إلى ١٩١٤) ولم يكن يبلغ الثامنة عشرة من عمره وهو تركى الأصل لا يهمّه غير اكتناز الأملاك واكتساب العقارات دون جهد منه أو عناء، لا يهمه أكثر من ذاته وإن كان فى كثير من الأحيان لا يجهر بهذا)[١٠] وربما تظاهر مع القوى الوطنية مرة وأخرى يتنكر.. وكثيرًا ما هتف له الشعب بلا جدوى.

أما رئيس مجلس النظار فهو «مصطفى فهمى باشا» وهو أداة طيّعة أو رجل إمعة، فكان إخلاصه الوطنى مشكوكًا فيه سياسته العامة صدى لرغبات الاحتلال.

أما ناظر الحقانية «وزير العدل» فهو «بطرس باشا غالى»وقد كان أكبر همّه الإبقاء على منصبه فى الوزارة، لهذا لم يُبال بشعور المواطنين ولم تغفر له مصر ذلك الموقف حيث سقط «بطرس غالى» قتيلاً بيد فدائى مصرى يدعى «إبراهيم الوردانى» سنة ١٩١٠ بعد أن اتهم محمد فريد بالخيانة.[١١] ونسب له أشياء تتنافى مع الوطنية.. ثم من هو الحاكم الفعلى للبلاد؟ إنه:

اللورد كرومر ـ تاسع أبناء «هنرى يارنج» أحد أعضاء البرلمان الإنكليزى. وما دام هو الحاكم الفعلى للبلاد إذا: فما صدر من مهازل الأحكام فمنه وإليه وإن كانت على ألسنة غيره من حملة الأقلام المشكوك فى وطنيتها، فعلى اللورد الإملاء وعليهم الكتابة..!! وإلى هؤلاء يشير حافظ إبراهيم بقوله:

ولعل القارئ يتساءل: ومن المسئول حينئذ عن أرواح هؤلاء الأبرياء ولعل ما يفصحُ عن هذا التساؤل: أن ألقى الضوء على مسئولى مصرفى تلك الحقبة الغابرة:

فأما حاكم البلادحينئذ فهو الخديوى عباس حلمى بن الخديو توفيق ولد فى ١٤ يولية سنة ١٨٧٤م وتولى عرش مصر (من ١٨٩٢ إلى ١٩١٤) ولم يكن يبلغ الثامنة عشرة من عمره وهو تركى الأصل لا يهمه أكثر من ذاته وإن كان فى كثير من الأحيان لا يجهر بهذا)[١٠] وربما تظاهر مع القوى الوطنية مرة وأخرى يتنكر.. وكثيرًا ما هتف له الشعب بلا جدوى.

أما رئيس مجلس النظار فهو «مصطفى فهمى باشا» وهو أداة طيعة أو رجل إمتعة، فكان إخلاصه الوطنى مشكوكًا فيه وسياسته العامة صدى لرغبات الاحتلال.

أما ناظر الحقانية «وزير العدل» فهو «بطرس باشا غالى» وقد كان أكبر همّهُ الإبقاء على منصبه فى الوزار، لهذا لم يُبال بشعور المواطنين ولم تغفر له مصر ذلك الموقف حيث سقط «بطرس غالى» قتيلاً بيد فدائى مصرى يدعى «ربراهيم الوردانى» سنة ١٩١٠ بعد أن اتهم محمد فريد بالخيانة.[١١] ونسب له أشياء تتنافى مع الوطنية.. ثم من هو الحاكم الفعلى للبلاد؟ إنه:

اللورد كرومر - تاسع أبناء «هنرى بارنج» أحد أعضاء البرلمان.

الإنجليزى - ومادام هو الحاكم الفعلى للبلاد إذا: فما صدر من مهازل الأحكام فمنه وإليه وإن كانت على ألسنة غير من حملة الأقلام

المشكوك فى وطنيتها، فعلى اللورد الإملاء وعليهم الكتابة..!! وإلى هؤلاء يشير حافظ إبراهيم بقوله:



أيها القائمون بالأمر فينا هل نسيتم ولاءنا والودادا؟

إلى قوله:

ليت شعرى أتلك محكمة التفتيـ ـش عادت أم عهد نيرون عادا؟
كيف يحلو من القوى التشفى فى ضعيفٍ ألقى إليه القيادا؟

الهوامش

(١) راجع مصطفى كامل . بقلم الرافعى ط ٤ (١٣٨١ هـ - ١٩٦٢م) ص ٢٠٠.

(٢) المرجع السابق بتصرف.

(٣) راجع مصطفى كامل بقلم الرافعى بك ص ٢٠٣.

(٤) راجع نص الحكم فى كتاب دنشواى والصحافة بقلم محمد نصر ص ٤٢ . ٤٨.

(٥) أنظر وصف مصطفى كامل للمحكمة بالفصل الثانى.

(٦) راجع دنشواى والصحافة.

(٧) مجلة المجلات العدد ٧,٦ سنة ١٩٠٦ ص ٣٠٨.

(٨) راجع كتاب موسوعة التاريخ الإسلامى للدكتور أحمد شلبى ص ٣١٧.

(٩) دنشواى والصحافة. بقلم محمد نصر ص ١٦.

(١٠) راجع دنشواى والصحافة.

(١١) راجع موسوعة التاريخ الإسلامى للدكتور احمد شلبى.

* سيأتى التعريف به فى الفصل الأول.

الباب الأول
الشعر العربى الحديث
وحادثة دنشواى

الفصل الأول
شوقى وحادثة دنشواى

من البَدَهى أن الشاعر ابن بيئته ومرآة لأحداث عصره يتميز بحسّه المرهف: وبوجدانه المتقّد، ولذا يتأثر أضعاف ما يتأثر به الناس من حوله..

وقد نشأ «أحمد شوقى بك» وسط أحداث أليمة أسفرت عن وجه احتلال بغيض،، فكان بوطنيته شاعر الحياة العربية، ويحنينه لمصر قمة الشاعرية وأميرها، ومن المعلوم أن «الوطنية» كلمة جامعة: كما تتمثل فى إخلاص العامل لعمله على اختلاف نوعه تتمثل أيضًا فى ومضات الكاتب ونبضات الشاعر، ونقدات الأديب الأريب.

فالشاعر: عندما يحس بالكارثة تهدد وطنه أو بالمصيبة تحل بقومه يثور ويصول ويزمجر ويجول.. فيرسل قوافيه لظىً تتحرك ، ويبعث قصيدته لهيبًا يتضرم فتشق طريقها إلى قلوب شعبه ونفوس أمته، ويظل هكذا حتى يرعوى الحاكم الظالم عن ظلمه والمستعمر عن أرضه.

«وشوقى» شاعر وطنى ووطنيته فى دمه أينما حل أو رحل واكتفى فى هذا المقام بقوله وهو بالمنفى:

وطني لو شُغلت بالخلد منه ... نازعتني إليه في الخلد نفسى

وبقوله بعد عودته:

ويا وطنى لو لقيتُك بعد يأسٍ ... كأنى قد لقيتُ بك الشبابا

ولو أنى دُعيت لكنتِ دينى ... عليه أقابل الحتمَ المجابا

أدير إليكِ قبل البيتِ وجهى ... إذا فُهتُ الشهادةَ والمتابا

فهذه وأمثالها دليلٌ صادق على وطنيته وبرهان على تعلقه بمصريته.

.٢.

وبعد: فأجد نفسى أمام سؤال يطرح نفسه وهو: ما السبب الذى أسكت شاعرنا (شوقى) عامًا كاملاً على حادثة دنشواى ؟ فهل يا ترى كان غائبًا عن مصر حينذاك؟ أو لزم الصمت رهبةً؟ أو أن الحادثة لم تستثره؟... هذه احتمالات يفرضها العقل؟

أما كونه غائبًا فمن أين يتحقق هذا؟؟

يقول ابنه:[1] كان الخديو يقضى مُعظم شهور الصيف فى الأستانة، ولما كان على أبى أن يرافقه فى أكثر سفره إليها فقد اقتنى لنا منزلاً على ضفاف البسفور، واستمرت رحلاتنا الصيفية إلى اسطمبول لغاية إعلان الحرب العالمية الأولى»

يقول الدكتور أحمد الحوفى: «رجعت إلى مذكرات أحمد شفيق فعرفت منها أن الخديو كان بالأستانة من (١٠) يونية إلى (٢١) أكتوبر سنة ١٩٠٦»[2] وقد وقعت الحادثة كما أشرت آنفًا فى ١٣ يونية سنة ١٩٠٦» فترجح لدىَّ أن شوقى كان غائبًا عن مصر حينما وقعت حادثة دنشواى»[3]

وأما كونه لزم الصمت لأن المأساة لم تستثره فلا أظن ذلك فالشاعر - كما قلنا - يتأثر أضعاف ما يتأثر به الناس من حوله. وقد عرض الأستاذ فوزى خليل عطوى فى كتابه[٤] لهذا الصدد فقال: «نعتقد أن المبرر الوحيد... هو انغماس شوقى فى سياسة القصر»

كما عرض الأستاذ «حسن كامل الصوفى» بقوله: ولعل منصبه فى القصر وصلته به كشاعر رب القصر هما اللذان حالا دون تناوله هذا الحادث. حتى حدث من كرومر ما حدث بعد ذلك من إهانته للمصريين والخديو إسماعيل فى الخطبة التى ألقاها فى الحفلة التى أقيمت توديعًا له فرأى شوقى أن الجو ملائم للقول فى هذه الحادثة[٥].

بينا أجد الدكتور: عبدالحميد سند الجندى يرد لوم اللائمين راضيًا عن صمت شوقى تلك المدة ولا يكتفى بذلك بل يتحامل على حافظ إبراهيم بقوله: وهو فى نظرى قد سلك مسلكًا أكرم من مسلك حافظ لأنه لاذ بالصمت حين تحين فرصةُ للقول.[٦] ويرى مثل هذا الأستاذ الزيات معللاً تعليلاً أقرب إلى خيال الشعراء منه إلى غيرهم: «وإذا كان فى شعر شبابه مأسور الفكر محصور الخيال محدود النظر لا يُعبِّر إلا عن رأى القصر ولا يصور إلا بألوان البيئة، فقد كانت هذه الحقبة الرسمية غيبة للشاعر عن نفسه وذهولاً عن وجوده.[٧]

والذى أميل إليه هو ما أشار إليه الدكتور (الحوفى) ولكننى أضيف شيئًا وهو أن غياب شوقى عن مصر لا يعفيه المسئولية، فمما لا شك فيه أن صدى الحادثة دوَّى فى أسماع العالم، والذى يبدو لى أن شاعرنا كان حذرًا يقظًا .. فهو لم يجاهر بالخصومة والعدوان فى وقت أشبه بالفتنة التى يعوزها الصبر والحكمة والمعالجة الحسنة.. فلعله رأى الصمت معالجة، والسكوت سياسة وحكمة.

وبعد: فهاتان قصيدتان لأمير الشعراء فى هذا الصدد إحداهما فى وداع كرومر والأخرى فى ذكرى دنشواى. وسأبدأ بعون الله بالأولى وأكتفى بالتعليق والتحليل حول أجواء قصيدته الثانية (الميمية).

وداع لورد كرومر(*)

أيامكم، أم عهدُ إسماعيلا؟ أم أنت فرعونٌ يسوس النِّيلا؟(٨)

أم حاكمٌ فى أرض مَصرَ بأمره لا سائلاً أبدًا ولا مسئولا؟

يا مالكًا رقّ الرقاب ببأسه هلا اتخذتَ إلى القلوب سبيلا؟(٩)

لما رحلتَ عن البلاد تشهدتْ فكأنكَ الداءُ العَياءَ رحيلاً(١٠)

أوسعتنا يوم الوداع إهانةً أدبٌ لعمركَ لا يُصيب مثيلا

هلا بدا لكَ أن تجاملَ بعد ما صاغ الرئيس لك الثناء كليلا(١١)

انظر إلى أدبِ الرئيس ولطفه تجد الرئيس مهذبًا ونبيلاء

فى ملعبٍ للمُضحكات مشيَّدٍ مثّلتَ فيه المبكيات فصولا(١٢)

شهد «الحسينَ» عليه لعنَ أصولهِ وتصدَّر الأعمى به تَطفيلا(١٣)

جُبنٌ أقلَّ وحظٌ من قَدْريهما والمرءُ إن يحين يعيش مرذولا

لما ذكرت به البلاد وأهلها مثّلتَ دورَ مماتها تمثيلا(١٤)

أنذرتنا رقًا يدوم وذلةً تبقى، وحالاً لا ترى تحويلا

أحسبْتَ أن الله دونك قُدرةً؟ لا يملكُ التغيير والتبديلا

الله يحكم فى الملوك ولم تكن دولٌ تنازعه القُوى لتَدولا(١٥)

فرعونٌ قبلك كان أعظمَ سطوةً وأعزَّ بين العالمين قبيلا(١٦)

اليومَ أخلفتُ الوعودَ حكومةٌ كنا نظن عهودها لإنجيلا

دخلتْ على حكم الوداد وشرعه مصرًا فكانت كالسُّلال دُخولا(١٧)

هدمت معالمها وهدّت ركنها   وأضاعت استقلالها المأمولا

قالوا جلبت لنا الرفاهة والغنى   جحدوا الإله وصنعَه والنيلا(١٨)

وحياةَ مصرَ على زمان محمد   ونهوضها من عهد إسماعيلا

ومدارسا يبنى البلاد حوافلا   حظ الفقير بهن كان جزيلا(١٩)

ومعاقلا لا تُمحَّى آثارها   وجيوشَ إبراهيم والأسطولا(٢٠)

وجداولا بين الضياع جواريا   تذر اليباب مزارعًا وحقولا(٢١)

ومدائناً قد خططت وطرائقا   كانت حُزونا فاستحلن سهولا(٢٢)

والقطن مزروعا بفضل محمد   فى مصر محلوجا بها مغزولا(٢٣)

قد مدَّ إسماعيلُ قبلك للورى   ظلَّ الحضارة فى البلاد ظليلا

إن قيس فى جودٍ وفى سرف إلى   ما تنفقون اليوم عُدَّ بخيلا

او كان قد صَرَع المفتش مرةً   فلكم صرعتَ بدنشوایَ قتيلا

فى كل تقرير تقول خلقتكم   أفهل ترى تقريرك التنزيلا(٢٤)

هل من نداك على المدارس أنها   تذر العلوم وتأخذ (الفوتبولا)(٢٥)

ام من صيانتك القضاءَ بمصرَ أن   تأتى بقاضى دنشوایَ وكيلا(٢٦)

ام هل يَعُدُّ لك الإضاعة منّة   جيشٌ كجيش الهند بات ذليلا

انظر إلى فتيانه ما شأنهم   أو ليس شأنا فى الجيوش ضئيلا؟

حرّمتهم أن يبلغوا رتب العلا   ورفعتَ قومكَ فوقهم تفضيلا(٢٧)

فإذا تطلعت الجيوش وأمّلت   مستقبلاً لم يملكوا التأميلا

مِنْ بعد مازَفُّوا لإدوردَ العُلا   فتحاً عريضًا فى البلادِ طويلا(٢٨)

لو كنت من حُمُر الثياب عبدتكم   من دون عيسى محسنًا ومُنيلا(٢٩)

أو كُنت بعض الإنكليز قبلتكم   مَلِكا أقطعُ كفه تقبيلا

او كنت عضوا فى «الكلوب» ملأته   أسفا لفرقتكم بكًا وعويلا(٣٠)

أو كنتُ قسيسًا يهيم مبشرا   رتّلت آية مدحكم ترتيلا(٣١)

أو كنتُ صرّافا بلندن دائنًا   أعطيتكم عن طيبةٍ تحويلا

أو كنتُ (تيمسكم) ملأت صحائفى مدحًا يَردَّدُ فى الورى موصولا[٣٢]
أو كنت فى مصرِ نزيلا جاهدًا سبّحتُ باسمك بكرة وأصيلا
أو كنتُ سريونا حلفتُ بأنكم أنتم جبوتم بالقناة الجيلا[٣٣]
ما كان من عقَباتها وصِعَابها ذلّلتموه بعزمِكم تذليلا
عهد الفرنج - وأنت تعلم عهدهمَ لا يبخسون المحسنين فتيلاً
فارحل بحفظ الله جلّ صنيعُه مستعفيًا إن شئت أو معزولاً
وأحمل بساقك ربطة فى لندن وأخلف هناك غراى أو كمبيلا[٣٤]
أو شاطرِ الملكَ العظيم بلاده ومَس الممالك عرضها والطولا
إنّا تمنينَا على الله المنى والله كان بنيلهن كفيلا
من سبّ دين محمد فمحمدٌ متمكنٌ عند الإله رسولا[٣٥]

وبعد: فتلك آيات ساطعة وكلمات جامعة ودع بها شوقى تلك الطاغية. الذى رحل عن مصر فاستراحت البلاد لرحيله وشفيت بفراقه كما لو كان داءً عضالا فطالما استرق البلاد، واستذل العباد. وقوض النهضة وأفسد الجيش وأتلف التعليم. وأهمل النظام النيابى. وقيد سلطة مجلس شورى القوانين وامتد به العبث فأفسد القضاء فى البلد ومن يصلح الملح إذا الملح فسد»...؟

ولذا أعجبنى خطابه مستعجلاً رحيله على أية حال:

فارحل بحفظ الله جلّ صنعُه مستعفيًا إن شئت أو معزولا.

. ٤ .

وهذه قصيدته الثانية فى ذكرى دنشواى[٣٦] وطلب العفو عن مسجونيها: -

يا دنشـــوايُ علـى رباك ســــلامُ
ذهـبــت بـأنــس ربـوعِكِ الأيــامْ

شُهداءُ حكمك فى البلاد تَفَرَّقوا
هيهات للشَّمل الشَّتيتِ نظام[٣٧]

مــرَّت عليــهم فـى اللَّحــود أهلَّةٌ
ومضى عليهم فى القيود العام[٣٨]

كيف الأراملُ فيك بعد رجالها؟
وبأى حــال أصــبح.. الأيتــام؟

عشـرون بيتًا أقـفـرت، وأنتابَهَا
بعـد البـشـاشـةِ وحـشـةٌ وظلام

ياليتَ شعري: فى البـروج حمائِمٌ
أم فـى البــروج منيــةٌ وحمـــام؟

(نيرون) لو أدركت عهد (كرومرٍ)
لعـرفتَ كـيف تُنفَّذ الأحكام؟[٣٩]

نوحى حـمـائمَ دنشـوايَ وروِّعى
شـــعــبًا بوادى النيل ليس ينام

إن نامت الأحــيـاء حــالتْ بينه
سَحَرًا وبين فِراشِه الأحـــلام

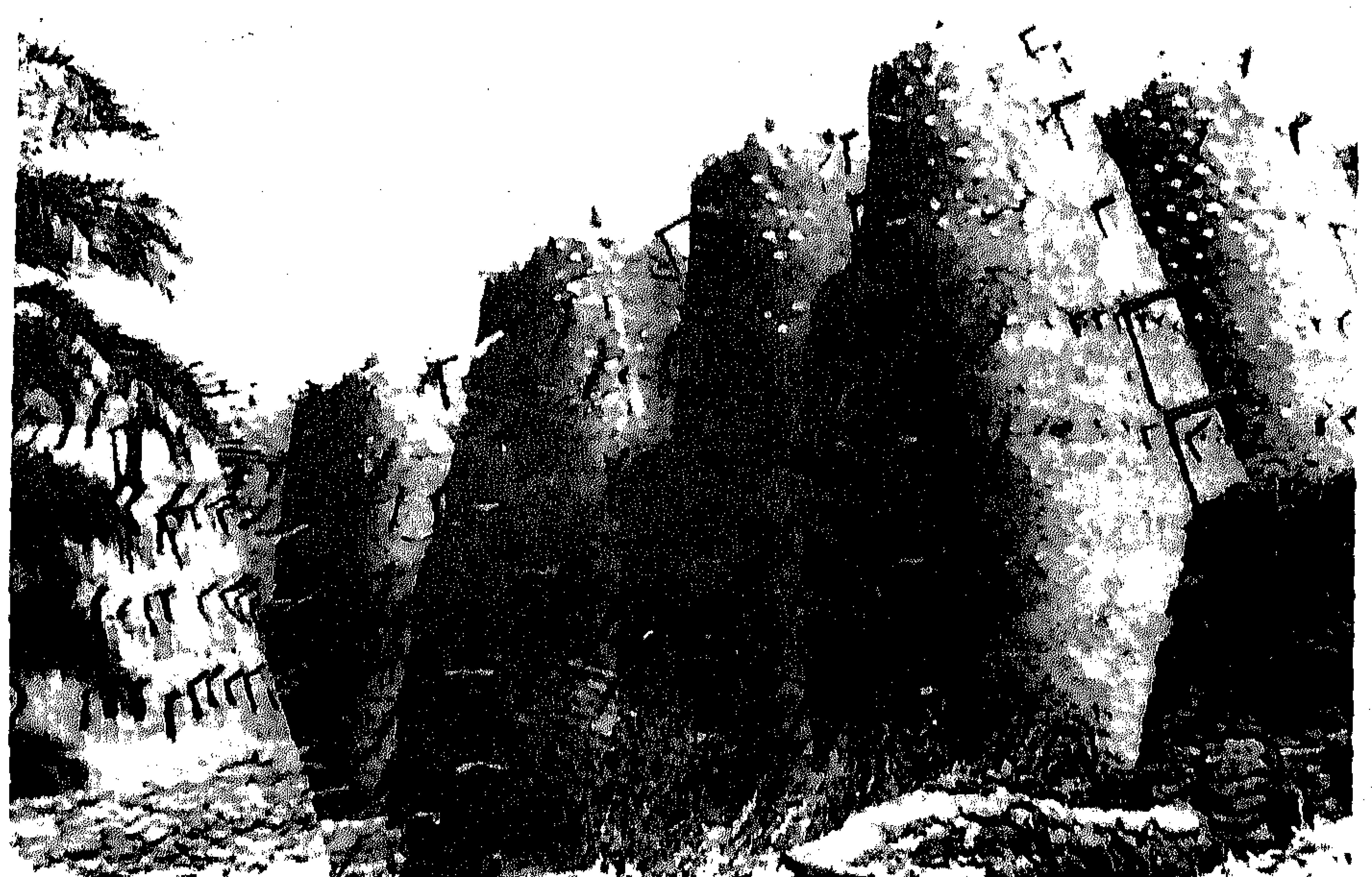
مــتــوجّع يتـمــثلُ اليـومَ الـذى
ضـجَّت لشــدة هوله الأقــدام

السَّوط يعــمل والمشــانق أربعٌ
مــتــوحــداتٌ والجنود قــيــام

المســتـشــارُ إلى الفظائع ناظرٌ
تَدْمَى جلودٌ حـــولَه وعِظام[٤٠]

فى كل ناحـيــةٍ وكلّ مــحـلةٍ
جـزعًا من الملأالأ سـيف زحــام

وعــلا وجــوة الشــاكلين كـآبةً
وعــلا وجــوه الشــاكـلات رَغَام



تحليل وتعليق

الأفكار العامة: تعرض الأبيات قرية دنشواى فى معرض الرثاء فتستعيد ذكريات منقوشةً على الأفئدة.. فتبدأ مخاطبة (دنشواى) باكيةً حالها نادبة آمالها متفجعة على شهدائها وسجنائها ... ثم تحمل العزاء والسلوى لهذه البيوت الخَربة والمنازل الموحشة فنتساءل، كيف أقفر عشرون بيتًا من رجالها؟.. كيف كاد لها الزمان؟ فتوالت بها الأهوال تترى؟ فبدل منها بحلو العيش مرًّا؟.. وهى تُعدد السؤال: كيف.. وكيف استحالت إلى هذه الحال..؟

ثم تعرض الأبيات لحمام دنشواى فتسأل متهكمة.. ما كان بالبروج؟ أهى الحَمام - رمز السلام - أم الحِمام والموت الزؤام؟... والشاعر حينما يذكر المحكمة الظالمة والنهاية الآثمة ينازعه أو يناجيه خاطرٌ من الماضى الأثيم مذكرًا بطاغوت روما (نيرون) الذى أحرق روما، ثم جلس فى شرفة قصره يتمتع برؤية النار وهى تلتهم المدينة. فالشاعر يناديه ليرَ حكم كرومر الذى قلّده فسبقه، وحاكاه فبذّه وكأن التشبيه قد انقلب.. فنيرون لن يبلغ «اللورد» قسوة.

ويأمر الشاعر فصيلة الحمام «جماعة السلام» مطالبًا بالنواح المفزِّع، والعديل المروع لشعب مصر الذى لا يَلَذ له نوم ولا يغمض له جفن.. وكيف، والفجيعة نصب أعينهم، والألم أصاب قلوبهم، وأمسى الليل مجمع الهواجس والأوهام.....!!

والأبيات ترسم صورة بارعة لتلك المجزرة البشعة، فالسُّوط يشق الجلود، والمشانق الأربع بنظامها المنسق المشهود، والجنود تمزق الرقاب فتدمى الأكباد، وعلى أطراف الصورة نجد الجموع الكثيرة والجماهيرالغفيرة ناظرة مشدودة وقد علت الغبرة وجوههم، وكست

الحسرة قلوبهم، فهم أشباح مبعثرة بين طبقات الظلام والقتام. وعلى هذا فالأفكار إنسانية عامة، يمكن أن يشترك فيها كثيرون، فهى ليست ذات خصائص فردية، أو ملامح ذاتية تكشف عن تجربته الذاتية بحيث تنطبق عليه، ولا تُعزى لسواه. ولا يفهم من هذا أيضًا أنه نقل تجربته الخاصة إلى شعور إنسانى عام، أو حوَّل عاطفته الفردية إلى عاطفة عامة، كلا وليته فعل. ولكنه لم يزد على أن سرد وقيعة تضمنت حقائق عامة لها وقعها الحزين دون أن يكشف عن مدى حزنه كما هو ماثل فى نفس شعبٍ جزع حزين.

وسمة القصيدة: (الحزن والألم الدَّفين) يعتلجان فى صدر شوقى، بيد أنه يجاهر المستعمرَ بما يكنه فى هذا المقام ولم ينظم قصيدته إلا بعد عام.. وهو هنا يسألهم العفو عن المسجونين ويطالبهم بإطلاق سراح المقيدين؛ ولهذا فهو يتلطف مع المستعمر ما أمكنه التلطف، ويتخفف من نقده ما وسعه التخفيف - إلى أن يفوز بطلبته وأن يصل إلى غايته فكان بموقفه هذا كمن يستدر رحمتهم حتى يمنُّوا على الأحياء المقيدين.

ومن هنا يذكر للمستعمر ما كانت عليه دنشواى وكيف ذهبت بأنس ربوعها الأيام، ويذكرهم بالشهداء والأرامل والأيتام وكيف تشردوا وتفرقوا.. وهيهات للشمل الشتيت نظام؟.... على أن شوقى - كما ذكرت - كان حذرًا يقظًا إذ لم يجاهر بخصومة ولم يواجه بعداوة فهو حينما تعرَّض لأحكام كرومر رجع قرنًا وقرونًا إلى أن وصل إلى (نيرون) الطاغية الباغية الذى لا يقاس ظلمه بظلم (كرومر) فخاطبه بقوله:

نيرون لو أدركت عهد كرومر   لعرفت كيف تنفذ الأحكام

والشاعر جعل كلامه هذا محتملاً وجهين::

الأول: لعرفت كيف تنفذ الأحكام العادلة. وهذا بعيد الاحتمال

والآخر: لعرفت كيف تنفذ الأحكام الجائزة وهذا عين المراد. وهذا ما يفهمه كل راء وسامع عن هول الحادثة فضلاً عن من نفذ الأحكام!

على هذا الدَّرب سار «شوقى» طوال القصيدة فهو ينادى ويسأل لاالإيجاب أو ليُرد عليه - بل يقرر الحقائق أمام السامعين فى صورة سؤال لهؤلاء الجائرين، وهذا من قبيل تجاهل العارف... فالشاعر إذاً مشحون بالعواطف المكبوتة، وأبياته بالحزن مبثوثة متسمة بالنواح والصراخ على هذه البلد الأمين، وعلى ذلك اليوم العصيب الذى ضجت لشدة هوله الأقدام والأقلام....

والشاعر يطالب الحمام أيضًا أن يشدوا بالنواح، وأن تكون أصواتها مروعة مفزعة لشعب مصر ما دام لم يُقتص للمجروح، وعلى هذا فعاطفة الشاعر صادقة وإن شابها الحذر والتأنى.

- ٣ -

أسلوب القصيدة:

(أ)

والقصيدة تصوير باكٍ لتلك الذكرى، وتقرير شاكٍ لتلك المأساة وتعبيرٌ واضحٌ عن نفسية شعب حزين..... نعم إنها ذكرى رثاء لبلدٍ دهتها الأيام، ودمعةُ بكاء على الأبرياء الذين تفرقوا وتشتتوا ذلةً وامتهانا.... بكاء على هؤلاء السجناء إذ « مضى عليهم فى القيود العام» دمعةٌ على تلك البيوت العشرين التى خلت من أهلها، وساكنيها، بعد أن زُج برجالها فى غياهب السجون فأضحت كأطلال أقفرت

فتبدلت بشاشتهًا وحشةً وظلاما.... دمعة على هؤلاء الأرامل اللائى حُرمن بعولتهن، وتحملّن صغارهن فتتضاعف لهنّ الألم حيث مرارة اليتم وحسرة الوحدة والفراغ.

والقصيدة أيضا تصويرٌ لماضى دنشواى، وتقرير لحاضرها، وتعبير عن مستقبلها؛ تصوير لماضيها السعيد الحافل بالأُنس والبشاشة والهدوء والأمان، وتقرير عن دنشواى وقد أصبحت كالبحر الهائج المضطرب الذى تواثبت أمواجه فترى الأهلين تساق بالسياط وجنود البغى تعدوا هنا وهناك فلا تسمع إلا رنّات السيّاط على الظهور بصراخ الأطفال وولولة النساء... إذًا فالشعب الوداع لا ينام، وكيف ينام وهو يتمثل اليوم المشئوم؟ فظله نصب عينيه وصوته صوب أذنيه؟ والقصيدة تعبير عن مستقبل حافل بالأوهام، والأوحال والأهوال كما هو زاخر بالأمانى والآمال.. فالآلام والأهوال لذلك العدو الطاغية الذى تجاهل الإنسانية فحرم الشعوب الحرية ومثّل بالأبرياء فى عقر دارهم...

وأما هذا الشعب فقد أصبح ثورًة على كل طاغية.. ثورًة اندلعت تنادى بحقها واندفعت تطالب بثأرها تأمل الحرية والاستقلال... وأرى هذا وكأن الحركة الوطنية قد انبعثت من مرقدها ذلك فى قول شوقى:

نوحى حمائم دنشواى وروّعى ... شعبًا بوادى النّيل ليس ينام
إن نامت الأحياء حالت بينه ... سحرًا وبين فراشه الأحلام
متوجعٌ يتمثل اليومَ الذى ... ضجت لشدة هوله الأقدام

(ب)

والقصيدة تعُجُّ بألوانٍ من البيان وأنغام من البديع.....

فالشاعر مثلاً يخبر بأساليب خبرية لا يريد بها إخبارًا لقصد الإخبار بل يريد معانى بلاغية وأغراضًا مجازية كقوله: (ذهبت بأنس ربوعك الأيام) وقوله: (شهداء حكمك فى البلاد تفرقوا) وقوله: (عشرون بيتًا أقفرت).. وغير ذلك فى القصيدة. فالمراد هنا ما يليق بالمقام « كالتحسر والتوجع والتفجع»، وبهذا يتذكر الشعبُ العربى، ويتدبر فى الخلاص من ذلك القيد.

ولعل الشاعر هدفَ إلى أمرين: الأول: تنبيه المشاعر وحث الجماهير. والآخر: ترقيق قلوب الباغين على الأبرياء المسجونين فيمُنّون عليهم بالعفو ويمنحونهم إطلاق السراح، ولعل هذا عين المراد من نظم القصيدة بعد عام.

وفى مناجاته دنشواى ونداثه: (يا دنشواى على رباك سلام) تشخيصٌ لها، ولهذا فالشاعر يواسيها مشاطرًا أحزانها . وفى قوله:

كيف الأرامل فيك بعد رجالها... وبأى حالٍ أصبح الأيتام؟

نجد الاستفهام الذى لا يراد به إجابة بل يشف عن حيرة هؤلاء الأرامل وعن مرارة هؤلاء الأيتام... وفى قوله:

يا ليت شعرى فى البروج حمائم أم فى البروج منيّةٌ وحِمام؟

نجد التمنى والتساؤل والتعجب والتشاؤم.. فكيف يأتى الحمام والموت الزؤام فى مكان.

وأقف مشدودًا أمام قوله:

نوحى حمائم دنشواى وروِّعى　　　شعبًا بوادى النّيل ليس ينام

فما أجد أبلغ فى تمثيل المأساة من ذلك (الأمر) لجماعات الحمام أن تُعلى بنواحها مفزِّعة مُروِّعة شعب وادى النيل.

وللشاعر مجازات عقلية وأخرى لغوية فضلاً عن المحسنات البديعية:

فمن المجاز العقلى قوله: (ذهبت بأنس ربوعك الأيام).. وقوله : (مرت عليهم.. أهله) وقوله: (مضى .. العام) وأيضًا: (عشرون بيتًا أقفرت) وقوله:،(حالت بينه الأحلام).. وقوله : (يتمثل اليوم) وقوله: (السوط يعمل)

ومن المجاز اللغوى: استعارته فى قوله: (انتابها وحشة وظلام).. وقوله: (ضجت الأقدام) وقوله: (تدمى جلود حوله وعظام) وقوله: (وعلا وجوه الثاكلين كآبة)!

ومن أنغام البديع: أرى الجناس الناقص»: فى بيته الثالث بين الحمائم والحِمام. كما أرى مراعاة النظير: بين الكلمات والمعانى فى قوله: ومرت عليهم فى اللحود أهلة) ، (مضى عليهم فى القيود العام) فالأهلة يناسبها العام، واللحود على وزن القيود ، ومرت تساوى مضى... وقوله: (الأرامل بعد رجالها... أيتام) فالأرامل تناظر الأيتام وتحاكيها منبع الآلام. وقوله:

إن نامت الأحياء حالت بينه　　　سحرًا وبين فراشه الأحلام

فالنوم يكون مع السَّحر، والفراش تستوحى الأحلام على حد قول القائل:

وإنى لأهوى النوم فى غير حينه　　　لعل خيالاً فى المنام يكون

وعلى كل ، فقد وفّق الشاعر فى مطلع قصيدته توفيقًا ما، عُرف منه موضوع القصيدة، وفُهم من خلالها مغزاها وأثرها فى النفوس.

والقصيدة تقليدية أكثر منها تجديدية. لذا فصورها باهتة أكثر منها قوية ناصعة. ففى قوله مخاطبًا دنشواى: (على رباك سلام) حاكى الشاعر الجاهلى وهو يخاطب الديار ويبكى الأطلال.

ودنشواى ليست من أرض الجزيرة، وما اشتهرت بمرتفعات أو جبال شاهقات. فكان من الأولى أن يذكرها بما هو ملائم للأنس أو السلام حتى يتفق مع المفهوم العام..

ويعجبنى أنه آثر كلمة «تفرقوا» فى قوله:

(شهداء حكمك فى البلاد تفرقوا) ولم يقل قتلوا مثلا.. ذلك ليذيل بيته بهذا المثل (هيهات للشمل الشتيت نظام)!!

وفى قوله: (مضى عليهم فى القيود العام) يقصد المسجونين، وإن كان فى سياق الحديث عن الشهداء الذين استشهدوا لم يسجنوا إذًا فالضمير فى «عليهم» يحتاج إلى عائد يعود عليه.. نعم فالمقام واضح إذ المسجونون مفهومون من المقام..

كما أرى تكلفًا واضحًا بين بعض الأبيات، ولعل مرجعه ضعف فى النسج وتقديم وتأخير فى معظم التراكيب، وحرص على الوزن، ونزول على رغبة القافية مما أكثر الفضول وعقد الأساليب، وعلى سبيل المثال قوله: (ضجت لشدة هوله الأقدام)، (هيهات للشمل الشتيت نظام) فأراه يفصل بين الفعل والفاعل واسم الفعل وفاعله المختص به.. فلعل ما ألجأه إلى مثل ذلك إما هو ضرورة الوزن أو الحرص على القافية.....

والحق أن الشاعرية الموهوبة أو الشاعر الحقيقى هو الذى يُخضع أوزانه وقوافيه للمعنى وليس الذى يخضع معانيه للوزن والقافية..

والأمر سواء بالنسبة للناثر إذا نثر بلا تكلف، وبهذا يرتجل فلا يتعثر، وينطلق بلا حدود أو قيود تصده.

وفضلاً عن فواصل شوقى التى حالت بين أبياته وبين قرب معانيها أجد الترادف المقصود بدافع من الزخرفة البديعية، ومتى أصبح البديع غرضًا مقصودًا فالأفكار أمامه مشلولة، والمعانى إزاءه باهتة مستهجنة.

فعلى سبيل المثال قوله: «منية وحمام» فالمنية هى الحمام... ولا يقال إنه جاء به للتوضيح بعد الإبهام أو للتقوية والتأكيد، فقد كان يصح هذا لو أنه عكس فانتقل من القريب إلى الأقرب، ومن الواضح إلى الأوضح ولكنه تعمد هذا التماسًا للجناس بين الحمائم والحمام.

وهكذا زخرف المبنى على حساب المعنى، فجنى على معانيه بنفسه وأتى على قوافيه بجرسه وعلى موسيقاه بوشيه؛ لذا فقد اعتراها ضعف فى النسج وكَلَفَه فى الموسيقى فضلاً عن بعض صورها الباهتة، فأصبحت وكأنها هيكل بلا روح وقوالب يعوزها النسب إلى شخصية محددة، فهى لا تدل على شخصية صاحبها، ولا تنطبع بسمات قائلها... فمن الممكن أن تعزى إلى شاعر القصر والأمراء.. وأود أن أعرض لأمر يتعلق بتلك القصيدة من قريب، أفسر به ما فى القصيدة من ضعف النسج العجيب..

(فقد يقال: إن هذه المأساة حدث تاريخى، وهذا اللون من الأشعار يقتضى السرد لما جدَّ من الأحداث، والعرض لما تمخضت عنه المواقف...

وقد يعترض على هذا ببعض القصائد التى نظمها شوقى قبل الحادثة، وأرى من حق ذلك المعترض أن يعترض ولكن لماذا قصرَّ هنا، ولم يقصِّر فى أحداث التاريخ السابقة؟ فضلا عن أنه من عشاق ذلك اللون من التاريخ...؛ ولهذا أنظر مشفقا على صاحبنا وقد فتح على نفسه باباً تتزاحم عليه رياح التأويلات وتتلاطم به أمواج التعليلات، فهذا موضوع وطنى يقتضى من أمير الشعراء ملحمةً وأى ملحمة، وقد يُقال: «إن طبيعة اللون التاريخى لها ظروفها الخاصة، وألوانها المتباينة مما يشقُّ على عواطفة الشاعر.».. أو يُقال: «إن للشاعر ساعات إلهام ولحظات هيام، وبدونها يكون على شفا حُفرةٍ من الإخفاق/»... وربما قيل: إن للشاعر نزعةً هروب وحالة قرار.. هروب من اليوم الذى نعيشه، وقرار إلى الأمس الذى تركناه، هروب من الحاضر وقرار إلى ما مضى وانقطع)

هكذا تعرِّض شاعرنا لتيار من الفِتن وغُصَّ صرَحُة ببحر من الإحن على ما به من مَلكةٍ فى فنون القريض نال بها الإمارة وتولى عن طريقها الزَّعامة. أقول: لعل هذه الهنات وأمثالها «كبوةُ جواد اعترت أمير الشعراء».. ولعلى أرى ما دفع شوقى لهذا المسلك فى قصيدته هذه - هو ما ذكرته آنفًا - أنه فى مقام التلطف مع المستعمر ما أمكنه التلطف، ذلك لأنه يطلب العفو عن السجونين ، فضلاً عن أنه أحد أفراد هذا الشعب الجزع الحزين.

موسيقى القصيدة

وكما وُفق الشاعر فى مطلع القصيدة بهذا القدر.. وُفق فى اختيار «بحر الكامل» المناسب لتلك الصور القاتمة والحزينة المؤلمة.

ومن الجدير بالذكر أن للصور كبير الأثر فى طبع القصيدة. وهذا ما جعلها تتسم بمسيم الحداد وتتشح بوشاح القتل والاستشهاد.

فموسيقى القصيدة شجية (تقليدية) ذاتُ رنين حزين.. فهى تحمل للقلب الأسى والأحزان ، وهذا بالطبع جو «المراثى وصدى الذكريات، وأنغام الأسى الدقيق: فالموسيقى فيها أشبه ما تكون بموسيقى الجنائز (الندب والحداد) وإن كانت موسيقى إيجابية مجدية، فهى لا تقف عند حد النواح والصراخ المفزّع لشعب مصر، فيتذكر المأساة التى راح ضحيتها أعز الأبناء.. إذًا فبذور الثورة كامنة فى قلبه تنتظر الساعة وترتقب اللحظة المتاحة.

وإيقاع القصيدة هو الآخر ثائر كامن كمون النار بالحجر الصلد، فالثورة وإلى الآن فى طريقها إلى البعث والانطلاق.. ولهذا نحس بنغمة الأسى أشد وأقوى من نغمة التمرد والانتقام.. كلٌّ هذا جلىّ فى مبدأ القصيدة.. إذ بدأت بالتفجع إلى أن اختتمت بركام من الكآبة والرغام، وما بين البداية والنهاية ظلم وظلام وجور وقتام وضحايا قد تجرعوا كأس المنون وسجناء قد أودعوا بطون السجون وغير ذلك حيث الأرامل والأيتام ، والوحشة والظلام والمشانق والآلام وحيث المستشار الناظر إلى الشنق والمجازر إلى آخره.. وهذا ما أشاع روح الأسى وجوَ الفجيعة وأنغام الوجيعة، وهذا أيضًا ما صبغ الموسيقى الداخلية والخارجية بهذه الصبغة الحزينة.... وهذا الجو القاتم يناسبه بحر الكامل ذو الإيقاع الهادئ.. كما يناسبه القافية «الميمية والمسبوقة بحرف مد »حيث يمكّن النَّفَس من أن يطولَ ويطول فيلتقى بالنواح

فيوازيه، وبالبكاء فيواسيه.. فالباكى يحتاج إلى كلمات محدودة، ونغماتٍ ممدودة تذهب مع النفس واللسان كل مذهب.

والقصيدة قد تميزت بالوحدة الموضوعية والعضوية ، فهى تدور حول دنشواى وما دهاها، ومما لا ريب فيه أن لوحدة القصيدة عظيم الأثر فى موسيقاها الداخلية.

الهوامش:

(١) أبى شوقى ١٨، ٢٨.
(٢) الدكتور أحمد محمد الحوفى فى كتابه وطنية شوقى ص ١٦٨ وما بعده.
(٣) المرجع السابق للدكتور أحمد الحوفى.
(٤) فى كتاب أحمد شوقى أمير الشعراء دراسة ونصوص ص ١٥٧.
(٥) فى كتاب حافظ وشوقى ص ٤٣.
(٦) فى كتاب حافظ إبراهيم شاعر النيل طبعة دار المعارف ص ١٦٧.
(٧) وحى الرسالة للأستاذ: أحمد حسن الزيات ١٦١ الطبعة الثانية.
* ديوان شوقى للدكتور الحوفى جـ١/٣٦٩. والشوقيات جـ١/١٧٣ ط. بيروت.

كرومر (١٨٤١ ـ ١٩١٧م) إدارى وسياسى بريطانى، عين ضابطا سنة ١٨٥٨ وأمينًا خاصًا لحاكم الهند العام ١٨٧٢ ـ ١٨٧٦. ومندوبًا بريطانيًا بصندوق الدين بمصر، ثم مندوبا لبريطانيا فى المراقبة الثانية سنة ١٨٧٩. اختير وزيرًا للمالية فى الهند، ثم عينته بريطانيا معتمدًا لها بمصر بدرجة وزير سنة ١٨٨٣م، ومنذ ذلك الحين كان الحاكم الفعلى لمصر، حتى أنه لم يكن يعين رئيس للوزارة المصرية إلا بموافقته. ومعنى ذلك أنه سلب الخديو عباس سلطته، وأهمل النظام النيابى، وقيد سلطة مجلس شورى القوانين، وقصر التعليم فى المدارس على تخريج صغار الموظفين بالحكومة. وافق على الأحكام الظالمة على متهمى دنشواى، فثارت مصر وهاجمه مصطفى كامل فى مصر وفى أوروبا فاضطر إلى الاستقالة سنة ١٩٠٧م.

كافأته بريطانيا بمنحه لقب إيرل سنة ١٩٠١ وبخمسين ألف جنيه على أثر استقالته.

وهو كاتب قدير ألف كتاب مصر الحديثة سنة ١٩٠٥ والاستعمار القديم والحديث سنة ١٩١٠.

ذكر الأستاذ عباس محمود العقاد فى مقال له أن شوقى نشر هذا فى القصيدة بعد بضع ساعات من الاحتفال الذى أقامه مصطفى فهمى باشا رئيس الوزراء بدار الأوبرا، وخطب يودع لورد كرومر ويثنى عليه، وكان لورد كرومر مسيئًا إلى مصر والمصريين و إلى الخديو إسماعيل أمام الأمير حسين كامل، لم يراع فيه واجب المجاملة (وطنية شوقى للدكتور

أحمد الحوفى الفصل الثالث بغضه الاحتلال).
(٨) إسماعيل: الخديو إسماعيل، وفرعون كل ملك من ملوك مصر الأقدمين.
(٩) رق الرقاب: استعبادها . البأس: الشدة والقوة.
(١٠) الداء العياء: الذى لا يبرأ .
(١١) الرئيس: مصطفى فهمى باشا، وهو الذى أقام حفل توديع اللورد كرومر بدار الأوبرا .
(١٢) ملعب: دار الأوبرا .
(١٣) الحسين: هو السلطان حسين كامل والأعمى: الشيخ عبد الكريم سليمان وكان بصره ضعيفًا وكاد يكف.
(١٤) لما ذكرت به: أى بذلك الملعب.
(١٥) لتدولا: لتنتقل من حال، إلى حال يريد أن الدول التى تنازع الله تعالى فى قواه لابد أن تفنى وتزول. أو لتدول بمعنى تصير ذات شهرة من دال يدول دالة.
(١٦) قبيلا: جماعة من أهل واحد .
(١٧) السلال: السل.
(١٨) جلبت: الخطاب للورد كرومر.
(١٩) حوافلا: جمع حافة أى ممتلئة.
(٢٠) معاقلا: جمع معقل وهو الحصن والملجأ .
(٢١) جداولاً: جمع جدول وهو النهر الصغير الضياع: جمع ضيعة وهى المزرعة. اليباب: القفر
(٢٢) الحزون: جمع حزن وهو ما غلظ من الأرض.
(٢٣) بفضل محمد: محمد على باشا لأنه أول من جاء بالقطن فزرعه فى مصر وأنشأ له محالج ومغازل.
(٢٤) تقرير: كان كرومر يضع فى كل سنة تقريرًا ينسب فيه إلى نفسه ضروبًا غير صحيحة من الإصلاح.
(٢٥) نداك: كرمك. تذر: تترك. الفوتبول: كلمة إنجليزية معناها كرة القدم.
(٢٦) قاضى دنشواى: أحمد فتحى زغلول باشا، كان قاضيًا فى المحكمة المخصوصة التى حاكمت أهل دنشواى وعاقبتهم، صار بعد هذه المحاكمة وكيلاً لوزارة الحقانية (العدل)
(٢٧) حرَّمْتهم: يريد حرمتهم بفتح الراء أى منعتهم،. لكن شوقى شدد الراء وليس هذا النص فى المعاجم بهذا المعنى.
(٢٨) البيت إشارة إلى فتح السودان، لأن الجيش المصرى هو الذى قام بفتحه ولم يكن لجنود بريطانيا أثر فى الفتح ذو قيمة. إدوارد ملك الإنجليز.
(٢٩) حمر الثياب: الإنجليز. يقول لو كنت إنكليزيا لعبدتك ولم أعبد عيسى لأنك أنلت الإنكليز وأحسنت إليهم بمالا مثيل له من إنالة وإحسان، والخطاب للورد كرومر.

(٣٠) الكلوب: دار ندوة بالقاهرة يشترك فيه سراة المصريين وكبار الإنجليز.

(٣١) البيت يشير إلى تأييد لورد كرومر للتبشير بالمسيحية فى مصر.

(٣٢) تيمسكم: جريدة التايمس الإنجليزية.

(٣٣) سريون: المسيو دى سريون مدير شركة قناة السويس.

(٣٤) احمل بساقك ربطة: إشارة إلى وسام عند الإنجليز يسمى وسام ربطة الساق، وقيل إن بريطانيا انعمت على اللورد كرومر يوم عزله من مصر بهذا الوسام. غراى وكمبيل: وزيران من وزراء الإنجليز.

(٣٥) سب دين محمد: كان كرومر قد طعن الدين الإسلامى فى تقريره سنة ١٩٠٦م فزعم أنه دين لا يصلح لهذا العصر..!!

(٣٦) اللواء عدد ٢٧ يونية ١٩٠٧، والشوقيات جـ١/٢٤٤ بيروت.

(٣٧) هيهات: كلمة تبعيد وهى اسم فعل ماضى مبنى على الفتح.

(٣٨) الضمير فى عليهم يعود إلى مسجونى دنشواى.

(٣٩) نيرون حاكم رومانى أحرق روما ثم جلس فى شرفة قصره يتمتع برؤية النار وهى تلتهمها

(٤٠) هو المستشار (بولاند) الإنجليزى الذى كان من قضاة محكمة دنشواى.

الفصل الثانى
حافظ وحادثة دنشواى

.١.

طرق حافظ إبراهيم باب السياسة فبز فيها أترابه المعاصرين، وكان «أكبر همه أن يرمى الإنكليز بآيات بارعاتٍ هن مصحف شعره وهو فيه صاحب أسلوب قد لا تقع عليه فى دواوين معاصريه، بل لا تقع عليه فى شعرنا العربى القديم كله. فهو شاعر الجيل وشاعر الشعب المصرى والأمة العربية الحديثة»[١].

ويرى الباحثُ مشقة الفصل بين شعره السياسى وشعره الاجتماعى اللهم ما هاجم فيه الإنجليز، ولقد ساقه لهذه المهاجمة حبه الشديد لمصر. ذلك الذى جعل منه بُوقًا وطنيًا لأمته، يقول الدكتور كامل جمعة: «ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إنه كان عاملاً مهمًا من عوامل تكوين الحركة الوطنية ومن لا يؤمن بهذا يغمضه حقه.. وقد ذهب قوم إلى أنه كان أثرًا من آثار الحركة الوطنية وليس مؤثرًا فيها وهذا تجنٍ عليه»[٢].

وحسب القارئ وطنيته الملتهبة التى تزخر بها عاطفته وروحه فى قوله:

كم ذا يكابد عاشقٌ ويلاقى   فى حبِّ مصر كثيرة العُشّاق

إنى لأحمل فى هـواك صبـــابة   يا مصرُ خرجت عـــلى الأطـواق

وقوله

لعـمرك مـــا أرقتُ لغيـر مصر   ومـــــالى دُونَهـــا أمـــلٌ يـــرام

ولكن حافظًا قد يعتريه شىء فتخبتْ صولته وتخمد جذوته فيبدو مواريًا أو مداريًا أو مجاملاً للإنجليز مما جعل بعض الباحثين يرمونه بأن: «ينبوع وطنيته لم يكن فياضًا فى نفسه بالمقدار الذى اشتهر به فى عصرنا، ويكفى أنه ذهب إلى السودان ثم طرد من الجيش، ولا نجد له إزاء هذا الطرد مقطوعةً واحدة يعبر فيها عن ثورته إزاء الظلم الذى وقع عليه[٣].

ولعله داراهم فى هذا لأنه رأى الإنجليز وقد تربصوا به ريب المنون كذلك لحملته على كتشنر إذًا فهذه تقيه بعدها ثورة[٤].

وشىء آخر لعله أن حافظا لم يكن قد حدد رأيه السياسى بعد «إذ اندفع مع المصلحين يتغنى بالنزعات الاصلاحية المختلفة»[٥].

ولقد ظلت ثورته على الاحتلال ومؤيديه كامنةً إلى أن اندفع مع المصلحين الزعماء أمثال مصطفى كامل وأخذ ينتهز الأحداث ليتقدم بقصائده الوطنية الحارة إلى صحيفة اللواء...

ففى حادثة دنشواى يشن غارته ويعلن إنكاره على الإنجليز ومساعديهم مستمطرًا دموع الإنسانية فى تهكم لاذع وأسى مرير، ولهذا نجد له عدة قصائد طوال ـ وهذه غرة قصائده التى نشرت يوم ٢ يولية سنة ١٩٠٦م أى بعد صدور الحكم بخمسة أيام، يقول فيها:[٦]

أيهـا القـائمـون بالأمـر فـينا ... هـل نسـيـتم ولاءنا والـودادا(٧)

خـفِّضُوا جيـشَكم وناموا هنيئًا ... وابتغوا صيدكم وجوبوا البلاد(٨)

وإذا أعـوزتـكم ذاتُ طـوقٍ ... بين تلك الرُّبا فصيدوا العبادا(٩)

إنمـا نحـن والحـمَام سـواءٌ ... لم تُغـادر أطواقُنا الأجيـادا(١٠)

لا تـظنـوا بنا العـقـوقَ ولكن ... أرشـدونا إذا ضللنـا الرَّشـادا

لا تُقـيـدوا من أمـة بقـتـيلٍ ... صادتْ الشمسُ نفسَه حين صَادَا(١١)

جـاء جُهَّالُنَا بـأمـر وجـئـتـم ... ضِعفَ ضِعفيه قسوةً واشتدادا

أحسنوا القـتل إن ضننتم بعفـوٍ ... أقـصـاصًا أردتُمُ أمْ كـيـادا؟

أحسنوا القـتل إن ضننتم بعفـوٍ ... أنفـوسًا أصـبـتُمُ أم جـمـادا؟

ليت شعرى أتلك (محكمة التفتـ ... تيش) عادت أم عهد (نيرونَ) عادا؟(١٢)

كيف يحلو من القوى التشفى ... من ضعيفٍ ألقى إليه القيادا؟

إنهـا مُثْلَةٌ تشُفُ عن الغـيـ ... ـظ ولسنا لغـيظكم أندادا(١٣)

أكـرمـونا بأرضنا حـيث كنتم ... إنمـا يُكـرِم الجَواد الجـوادا

* * *

إن عشـرين حِجـةً بعـد خمس ... علَّمتنا السكون مهما تمادى(١٤)

أمـة النيل أكـبـرت أن تعـادى ... من رماها وأشفقت أن تُعادى(١٥)

ليس فـيـهـا إلا كـلامٌ، وإلا ... حسـرةٌ بعـد حسـرةٍ تتـهـادى

أيهـا المدَّعى العـمـوميُّ مـهـلاً ... بعضَ هـذا فـقـد بلغتَ المرادا(١٦)

قـد ضمِنا لك القـضـاء بمصـر ... وضـمِنا لنجلِك الإسـعـادا(١٧)

فـإذا مـا جلستَ للحكم فـاذكـر ... عهد (مصر) فقد شَفَيْتَ الفؤادا

لا جرى النيل فى نواحيك يا (مصـ ـرُ) ولا جادَكِ الحيا حيث جادا[18]

أنتِ أنبتِّ ذلك النبتَ يا (مـصـ ـرُ) فأضحى عليك شوكا قتادا[19]

أنت أنبتِّ ناعــقًا قــام بالأمـ ـس فـأدمى القلوب والأكبادا[20]

إيه يا مـدره القـضــاء! ويا من ساد فى غفلة الزمان وشادا[21]

أنت جـــلاَّدُنا، فـــلا تنسَ أنَّا قـــد لبِسْنا على يديك الحِدادا



وداع (اللورد) كرومر

قالها عند استقالة اللورد وضمنها آراء الناس فى سياسته

فتى الشِّعر! هذا موطن الصدق والهدى ... فلا تكذب التاريخ إن كنت منشدًا[٢٢]

لقد حان توديع العميد وإنه ... حقيقٌ بتشييع المحبين والعدا[٢٣]

فودع لنا الطَّود الذى كان شامخًا ... وشيع لنا البحر الذى كان مزبدا[٢٤]

وزوّده عنا بالكرامة كلها ... وإن لم يكن بالباقيات مزوَّدا

فلمَ لا نرى الأهرام - يا نيلُ - مُيَّدا؟ ... وفرعون عن واديكَ مرتحِلٌ غدا[٢٥]

كأنك لم تجزع عليه ولم تكن ... ترى فى حمى فرعونَ أمنًا ولا جَدا[٢٦]

سلام ولو أن نسىء إلى الألى ... أساءوا إلينا ما مددنا لهم يدا

سنطرى أياديك التى قد أفضتها ... علينا فلسنا أمة تجحد اليدا[٢٧]

أَمِنًّا فلم يسلُك بنا الخوفُ مسلكًا ... ونِمْنَا فلم يطرُق لنا الذعر مرْقَدَا

وكنت رحيم القلب تحمى ضعيفنا ... وتدفعُ عنا حادث الدهر إنْ عَدَا

ولولا أسىً فى (دنشواىَ) ولوعةٌ ... وفاجعةٌ أدمتْ قلوبًا وأكْبدا[٢٨]

ورميك شعبًا بالتعصُّب غافلا ... وتصويرُك الشرقىَّ غِرًّا مُجَرَّدا[٢٩]

لذُبنا أسىً يوم الوداع لأننا ... نرى فيك ذاك المصلح المتودِّدا

تشعبت الآراء فيك فقائلٌ ... أفاد الغِنى أهلَ البلادِ وأسعدا

وكانت له فى المصْلحين سياسةٌ ... تَرَخُّص فيها تارةً وتَشَدُّدا[٣٠]

رَأَى العِزَّ كلَّ العِزِّ فى بَسْطة الغنى ... فحارب جيش الفقر حتى تَبَدَّدا[٣١]

وأمْتعكم بالنيل فهْو مباركٌ ... على أهْله، خِصبًا وريًا ومَوْردا[٣٢]

وسنَّ لكم حُرِّية القول عندما ... رأى القول فى أَسْرِ السكوت مُقَيَّدا[٣٣]

وآخرُ لم يَقْصِر على المال هَمَّه ... يرى أنَّ ذاكَ المالَ لا يكفُلُ الهدى[٣٤]

فلا يخمَد الإثراء حتى يزينَه ... بعلم، وخيرُ العلم ما كان مُرْشِدا[٣٥]

يناديك قد أزريتَ بالعلم والحِجا ... ولم تُبق للتعليم يا (لُرْدُ) معهدا[٣٦]

وأنك أخصبت البلاد تعمُّدا ... وأجدبت فى مصر العقول تعمُّدا

قضيت على أُمِّ اللُغات وإنَّه ... قضاءٌ علينا أو سبيل إلى الرَّدى[٣٧]

ووافيتَ والقُطْرانِ فى ظل رايةٍ ... فمازلت (بالسودانِ) حتى تمرَّدا[٣٨]

فطاح كما طاحتْ (مُصَوَّعٌ) بعده ... وضاعت مساعينا بأطماعكم سُدى[٣٩]

حجبتَ ضياءَ الصُّحْفِ عن ظلماته ... ولم تستقل حتى حَجَبْتَ (المُؤيَّدا)[٤٠]

وأودعتَ تقرير الوداع مغامزًا ... رأينا جفاءَ الطَّبع فيها مُجَسَّدا[٤١]

غمزْتَ بها دينَ النبيِّ وإنَّنا ... لَنَغْضبُ إن أغضبت فى القبر (أحمدا)

يناديك أين النابغون بعهدِكم ... وأىُّ بناءٍ شامخٍ قد تَجَدَّدا[٤٢]

فما عهد (إسماعيلَ) والعيشُ ضيقٌ ... بأجدبَ من عهدٍ لكم سالَ عَسْجَدا[٤٣]

يناديك ولَّيْتَ الوزارة هيئةً ... من الصُّمِّ لم تسمع لأصواتِنا صَدَى[٤٤]

فليس بها عند التشاور من فتىً ... أبِىٍّ إذا ما أصدر الأمر أَوْرَدَا

أشرت برأىٍ فى كتابك لم يكن ... سديدًا ولكن كان سهْمًا مُسدَّدا[٤٥]

وحاولت إعطاء الغريب مكانةً ... تَجُرُّ علينا الوَيل والذُّلَّ سرمدا[٤٦]

فياويلَ مصرٍ يوم تشْقى بندوةٍ ... بيت بها ذاك الغريب مُسَوَّدًا[٤٧]

ألم يكفِنا أنَّا سُلبنا ضياعنا ... على حين لم نبلغ من الفطنة المدى[٤٨]

وزاحمنا فى العيش كلٌّ ممارسٍ خــبــيــر وكنَّا جــاهلين ورُقَّدا[٤٩]
وما الشركات السُّودُ فى كلِّ بلدة سوى شـــرَكٍ يُلْقى بـه مَنْ تَصيَّدا
فهذا حديثُ الناسِ والناسُ ألسُنٌ إذا قــال هذا، صــاح ذاك مــفنِّدا[٥٠]
ولو كنتُ من أهل السياسة بينهم لسَّجلتُ لى رأيا وبُلِّغتُ مــقــصدا
ولكننى فى معرِضِ القول شاعرٌ أضــاف إلى التــاريخ قــولاً مُخلَّدا
فـيـأيها الشـيخُ الجليل تحـيـةً ويـأيهـا القـصـرُ المُنيفُ تَجلَّدا[٥٠]
لئن غــاب هذا الليثُ عنكَ لِعلَّةٍ لقــد لَبِثتْ آثاره فــيـك شُهَّدًا

تعليق:

فى هذه الأبيات يتأهّبُ حافظ كل التأهب فيودع عميد الاحتلال توديعًا من نمط فريد فهو يجعل له من الطبيعة شبهًا به كما يطلق عليه (فرعون وادى النيل) ولا يمنع حافظ من أن يشيد بمآثر اللُّورد إنصافًا لحقه، وإظهارًا لما عليه النفس المصرية من التسامح وإلى أى مدى يكون العفو عند المقدرة.

وشاعرنا يمزج وداعه بلومه الشديد على سياسته وسوء مسلكه، ثم يشير إلى آراء الناس فى هذا العميد الراحل فينشىء حوارًا جميلاً يطرح من خلاله ما يعتلج النفوس «تشعبت الآراء فيك» ويظل فى حواه الساخر فإذا ما انتهى منها ومن أقوال الناس أشار لوظيفة الشاعر فى هذا المضمار

ولكنى فى معرض القول شاعرٌ أضاف إلى التاريخ قولاً مُخلدا

وبهذا يكون حافظ قد شمّت به الشعراء وغيرهم، وجعل توديعه تشبيعًا وإن كان بغير بكاء؛ ذلك لأن من نشيّعُه خلَّف وراءه أسىً ولوعةً

أدمتْ القلوب والأكباد ولطالما رمى المصريين بالتعصب، واتهمهم بالتجرد من كلّ قيمةٍ وفضيلة، وامتد عدوانه على التعليم فأغلق معاهدة وامتد شره إلى اللغة فقضى عليها، وأعمل كيده فى وحدة القطرين (مصر والسودان) فأفسد ما بينهما وعطل الصحف ليمنع النور عنا بهذا التوديع أرى حافظًا قد فاق صاحبه (شوقى) وتقدَّمَ عليه.

***

ويأتى السير غورست[٥٢] إلى مصر عميدًا لإنجلترا خلفًا للورد كرومر فيستقبله حافظ بقصيدة يبثُ فيها آلام مصر وآمالها وتلح عليه مأساة دنشواى فيقول:[٥٣]

بناتِ الشعر بالنفحات جودى	فهذا يومُ شاعرِك المجيد[٥٤]

إلى أن يقول:

بناتُ الشعر إنْ هِىَ أسعدتنى	شكوتُ من العميد إلى العميد[٥٥]
ولم أجحدْ عوارفه ولكنْ	رأيتُ المَنَّ داعيةَ الجحود[٥٦]
أَذِيقونا الرجاءَ فقد ظمِئنا	بعهد المصلحين إلى الوُرود[٥٧]
ومُنّوا بالوجود فقد جَهلنا	بفضل وُجُودِكم معنى الوجود
إذا اعْلَوْ لَى الصيَّاحُ فلا تلُمْنا	فإن الناس فى جُهدٍ جهيد[٥٨]
على قدر الأذى والظُّلم يعلو	صياحُ المُشفِقِين من المزيد[٥٩]
جراحٌ فى النفوس نَغَرْنَ نغرًا	وكُنَّ قد اندملن على صديد[٦٠]
إذا ما هاجهن أسى جديدٌ	هتكْنَ سرائرَ القلبِ الجليد[٦١]
إلى من نشتكى عنت الليالى	إلى (العبّاس) أم (عبد الحميد)؟[٦٢]

وذُونَ حِمـاهُمَا قـامت رجـالٌ ... تُرَوِّعُنا بأصناف الوعـيـد[٦٣]

فـمـا جـئنا نُطاولكم بجـاهٍ ... يُطُولُكمُ ولا ركن شـديد[٦٤]

ولا بتنا نُعـاجـزُكُم بعلم ... يَبِـينُ به الغَوِىُّ من الرشـيد[٦٥]

ولكنّـا نُطـالبُكم بحـق ... أَضَرَّ بأهله نقضُ العهود[٦٦]

رمـانا صاحب التقرير ظُلما ... بكفران العوارف والكُنُود[٦٧]

وأقْسم لا يُجـيبُ لنا نداءً ... ولو جِئْنا بقرآن مَجيد

وبشّر أهل مصرٍ باحتلالٍ ... يدوم عليهمُ أبد الأبيدا[٦٨]

وأنبت فى النفوس لكم جفاءً ... تَعَهَّدَه بمُنْهَلّ الصدود[٦٩]

فأثمر وحشةً بلغتْ مَدَاها ... وزكّاها بأربعةٍ شُهُود[٧٠]

قَتيلُ الشمس أوْرثَنا حياةً ... وأيقظ هاجعَ القوم الرُّقُود[٧١]

فليت (كُرُومَرًا) قد دام فينا ... يُطَوِّقُ بالسلاسل كُلَّ جيد

ويُتْحِفُ (مصر) آنًا بعْد آن ... بمجلودٍ ومقتولٍ شهيد

لِنَنْزِعِ هذه الأكفانَ عنّا ... ونُبْعَثَ فى العوالم من جديد

رمى (دار المعارف) بالرَّزايا ... وجاء بكل جبارٍ عنيد[٧٢]

يُدِل بحوله ويتيهُ تِيهًا ... ويبعثُ بالنُّهَى عبث الوليد[٧٣]

فبدّد شملها وأدال منها ... وصاح بها: سبيلُكِ أن تَبيدِى[٧٤]

هَبُوا (دَنْلُوبَ) أرْحبَكم جنانًا ... وأقْدركم على نزع الحُقُود[٧٥]

وأعلى من (غلادستون) رأيا ... وأحكم من فلاسفة (الهنود)[٧٦]

فإنا لا نُطيق له جوارًا ... وقد أَوْدَى بِنا أو كاد يودى

مللنا طول صُحبتِه وملَّت سَوابِقُنا مِن المشَى الوئيد[٧٧]

بحمد الله مُلْكُكُم كبيرٌ وأنتم أهل مرحمةٍ وجُودِ

خذوه فأمتعوا شعبًا سوانا بهذا الفضْل والعِلم المفيد

إذا استوزرت فاستوزر علينا فتىً (كالفضْل) أو (كابن العميد)[٧٨]

ولا تثقل مطاهُ بمستشار يحيدُ به عن القصد الحميد[٧٩]

وفى الشُّرى بنا داءٌ عهيدٌ قد استعصى على الطب العهيد[٨٠]

شُيُوخٌ كلَّما هَمَّتْ بآمر زأرتم دونه زأر الأسود

لِحىً بيْضاءُ يوم الرأى هانت على حُمْر المَلابس والخُدُود[٨١]

أترضى أنْ يُقال - وأنت حُرٌّ - بأنك قَيْنُ هاتيك القُيُود؟[٨٢]

وهل فى دار ندوَتِكم أُناسٌ بهذا الموتِ أو هذا الجُمودِ؟[٨٣]

فنحٌ غَضاضَةَ التّمييز عنَّا كفانا سائغُ النِّيل السَّعيد

أرى أحداثَكُم مَلَكُوا علينا (بمصرَ) موارد العيش الرَّغيد[٨٤]

وقد ضِقنا بهم وأبيك ذرعًا وضاق بحَمْلِهم ذَرْعُ البريد

أَكُلُّ مَوَظَّفٍ منكم قديرٌ على التشريع فى ظل العميد؟

فضع حدًا لهم وانظر إلينا إذا أنصفتنا نَظَرَ الوَدُود

وخَبِّرهُمْ وأنت بنا خبيرٌ بأن الذُّلَّ شِنْشِنَةُ العبيد[٨٥]

وأنَّ نُفُوسَ هذا الخلق تأبى لغير إلاهها ذُلَّ السجود

وولِّ أمورنا الأخيار منّا نَثِبْ بهمُ إلى الشَّأو البعيد[٨٦]

وأشركنا مع الأخيار منكم إذا جلسوا لإيقام الحُدُود[٨٧]

وأسـعـدنا بجـامـعـةٍ وشـيِّد — لنا من مـجـد دولتك المَشِيـد
وإن أَنعَمْتَ بالإصـلاح فـابدأ — بتلك فـإنهـا بَيْتُ القـصـيـد
وفـرِّج أَزْمَةَ الأَمْوال عـنّا — بمـا أُوتيـت مـن رأى سـديـدِ
وسلْ عنهـا (اليـهـود) ولا تسلنا — فـقـد ضـاقتْ بهـا حِيلُ (اليـهـود)
إذا مـا نـاح فـى (أُسْوانَ) بـاكٍ — سـمـعتَ أنين شـاكٍ فـى (رشـيـد)
جـمـيعُ النـاس فى البلْوى سـواءٌ — بأَدْنـى الثَّغْرِ أو أَعْلى الصَّعـيـد
تدارك أمـةً بالشَّرقِ أمـسـتْ — علـى الأيـام عـاثـرةَ الجُدُود
وأيِّد مـصـرَ والسـودان واغنم — ثنـاءَ القـوم مـن بـيضٍ وسُود
ومـا أدْرى وقـد زَوَّدتُ شـعـرى — وظَنّى فـيـك بالأَمَلِ الوَطِيـد[٨٨]
أجـئـت تحُوطُنـا وتَرُدُّ عـنّا — وتـرفـعُنـا إلـى أَوْجِ السُّعُود[٨٩]
أم اللُّرْدُ الـذى أنـحـى عـلـيـنـا — أتـى فـى ثـوب مُعْتَمِدٍ جـديد؟[٩٠]

هكذا يبُث حافظ مساوىء اللورد كرومر صاحب التقرير الذى رمى مصر فيه بكفران النعمة وجحودها، واستبد بها وأذلها وقضى على آمالها فى الاستقلال وأورثها جفاءً وبغضًا بما جناه فى «دنشواى» تذرعًا بقتيل الشمس وتسترًا للبغى وللفساد فى شئون البلاد، وفى التعليم فكم أفسده بمستشاره «دنلوب» وكم فرّق بين مصر والسودان بكيد خبيث، والشاعر يدعو العميد الجديد أن يُخلّص مدارسنا من ذلك المستشار البغيض وأن يؤيد وحدتنا مع السودان، وأن يتدارك أُمتنا بسياسة رشيدة تصطفى للوزارة فتيةً نابهين كالفضل بن سهل أو كابن العميد كما نبه العميد الجديد إلى أننا أمة واحدة متماسكة كالجسد ....

الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى إلى آخر ما نبه العميد الجديد إليه.

تحليل وتعليق:

وأكتفى بالتحليل والتعليق على إحدى قصائده وهى الأولى (الدالية).

(أ)

الأفكار العامة:

يُذّكر حافظ إبراهيم أولى الأمر من الإنجليز بود المصريين وولائهم ثم فى سخرية وتهكم يطلب إليهم أن يُرَفّهوا عن أنفسهم وعن جيوشهم وأن يناموا هادئين وادعين وأن يجوبوا خلال الديار ليصطادوا أو ليتجولوا فى حرية حيث لا قيود ولا بنود.. فإذا عزَّ عليهم صيد الحمام فلا حرج ولا جناح عليهم أن يستبدلوا بها أرواحنا نحن البشر..!! حيث لا فرق بين هذه وتلك - فالحمام مطوق بالسواد - والأرواح قد وصمت بذُلِّ الاستعباد والاستبداد.

(ب)

وفى مناقشة حادة التزم فيها الشاعر بالمنطق يقول: وإذا كنا - جدلاً - قد ضللنا فهلا أرشدتمونا؟ وعلى فرض أن رجلاً أساء إليكم فهل يجوز أن تؤخذ أمة برجل؟ وإذا كان قد أساء مرة فأنتم السابقون بالإساءة فضلاً عن كونها أضعافًا مضاعفة.. فقد بخلتم بعفو، ولم تعاقبوا بالمثل! ولم تحسنوا القتل! بل حاكيتم محاكم التفتيش الجائرة التى أذاقت العرب بأسبانيا كل الهوان وأشبهتم «نيرون» الطاغية الذى أحرق روما وهو يراقبها هانئًا غير عابئ، فهذا القضاء الأخرق الظالم

فى دنشواى يسلك فى قرن مع محاكم التفتيش الظالمة وعهد نيرون الطاغية... على أن قتيلكم قد ثبت أنه لم يمت إلا بحرارة الشمس القاسية إذًا فما لكم علينا من قصاص تقتصونه وإذًا فما هو إلا التنكيل والتشفى، وإذا سلمتم بذلك فاذكروا ما كان من ود وولاء بيننا وبينكم ﴿وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾ «إنما يكرم الجوادُ الجوادا»..!!.

(جـ)

ويتصدى الشاعر لأمر مهم تفشَّى بين المصريين حينذاك إنه سكوتهم على ذلك العدوان واستسلامهم لذلك الهوان ثم يعلل بما هو أقبح من الذنب - بأن الشعب قد ألف كيد الاستعمار وتعوده منه بالتكرار، الأمر الذى جعلهم يكتبون مناصَبَةَ العدو العداء... إلى أن يشاء الله، ثم خلَّفت هذه الظروف أناسًا أجادوا ترديد العبارات وتصعيد الزفرات وتجويد الشعارات الجوفاء.

وهو يخص بالذكر (إبراهيم الهلباوى) فيقف فى لباقة ليكيل له الضربات ويستمطر عليه اللعنات.. فالشاعر يتهكم به فيخبره على سبيل السخرية أنه ضمن لنفسه منصب القضاء بمصر وكذلك لأنجاله من بعده.. ذلك لأنه قدَّم لمصر كل الضمانات التى تكفل لهم القضاء ببلدهم الأمين.

وينهال عليه فضلُ (مصرَ) وما قدمته لأبنائها من النِّعم المتعددة. فتأخذه الحميَّة فيثور ويفور فيدعوا عليها بألا يجرى بأرضها ماء النيل حتى لا يحيا نبتها فيصير شوكًا مرًا، وحتى لا تنجب مولودًا (إذا ما اشتد ساعده رماها) وأصبح عاقًا أو خطيبًا ناعقًا يُجُرُّ عليها مهازل القضاء ومنازل البغى والشقاء.

.٢٠

وسمة القصيدة المتفشية خلال الأبيات: هى السخرية والتشهير، والتهكم والتحقير.. فالسخرية من ذلك العدو البريطانى والتشهير بعجز الشعب المصرى والاحتقار من ذلك المدّعى العمومى، ولعل دواعى السخرية متضافرة وأسبابها متوافرة فخروج البريطانيين لصيد الحمام - وإنكار حقيقة موت ضابطهم، ثم طريقة المحاكمة ثم موقف المدعى العمومى المصرى... إلخ؛ كل هذا جعل الشاعر ساخرًا من كل ما أشارت إليه أبياته (أسباب المحاكمة واصحابها.. الضابط الإنجليزى الذى صادت الشمس نفسه.. الجماهير التى هى الحمام والحمام سواء... الخائن إذا ساد وشاد فى غفلة من الزمان).. الخ.

وليست هذه الروح الساخرة جديدةً على حافظ فهذه طريقته فى المعالجة وهذا دَيْدَنه فى كل ما يَدْهَم المجتمع ويعتريه... وبهذه الروح النادرة استطاع أن يجعل من المأساة ما هو أشبه بالملهاة التى من خلالها يكيل الساخر ضرباته بيد أنه رجل حذر (يضرب ويلاقى) وحافظ - الاجتماعى الأول - بروحه الخفيفة وطبيعته المرحة استطاع أن يبرِّز فى أحلك الأوقات وأشد الأزمات، وشعور حافظ العميق بمرارة المأساة وجدية الملهاة يظهر بين الحين والحين فما كان ليلهو فى موضوع خطير كهذا؛ فهو يكيل للمدعى الخائن اللعنات ويعيب على مصر أنها أنبتت نبتًا (فأضحى شوكًا قتادا) وأنجبت ناجذًا (ادمى القلوب والأكبادا)، ويعود ثانيةً ليخص الهلباوى بالازدراء، ويذكره بما هو واجب عليه إذ أنه قد ساد فى غفلة الزمان ثم تمادى ليصبح جلاد أمته، لذا فهو يخاطبه بهذه العبارة الموجزة (قد لبسنا على يديك الحدادا).

وإنى أتخيل مع هذه العبارة كأن قائدًا تقدم قومه ليُعطى البيعة على الثأر، وبذل ما يمكنه فى سبيل النصر بعدما دنس كرومر البلاد وألبس الهلباوى الشعب لباس الحداد؛ ولهذا لا أحد يرتاب فى صدق عاطفة شاعرنا الذى تحمَّل المواجهة وبادر بالتنديد..

.٣.

(أ)

أسلوب القصيدة:

أرى فى شعر حافظ - ولاسيما فى موضوعنا هذا - أنه يلجأ إلى نزعته الخطابية أو إلى مؤثرات هى أقرب إلى فن الخطابة منها إلى الشعر.. وحُق له ذلك فهو يعالج موضوعًا وطنيًا وحادثًا شعبيًا يستوجب منه الإثارة والحماس وبثّ ذلك فى صدور الجماهير[٩١].

ويمكن أن نُقسِّم صور القصيدة إلى نوعين:

- نوع من الصور سلك فيها مسلك الحماس والإثارة.
- والأخرى سلك فيها مسلك العقل والبصيرة، فمن الأولى قوله:

وإذا أعوزتكم ذاتُ طوق   بين تلك الرُّبا فصيدوا العبادا..!!

وقوله:

إنما نحن والحمام سواء   لم تغادر أطواقُنا الأجيادا..!!

وقوله:

(أرشدونا إذا ضللنا الرشادا)، (أكرمونا بأرضنا)، (أنتِ أنبتِّ ناعقا..)، (أنتَ جلادنا)، (لبسنا الحدادا) إلخ..!!

وقد يتبادر للذهن من خلال هذه العبارات ضعفٌ فى نفس حافظ أو استجداء وتراجع.. وغير ذلك مما اتُّهم به.. ولعلى قد أشرت آنفًا (خلال

التقديم لهذا الفصل) أنها تُقيةٌ بعد ثورة وما دفعه لتلك المجاهرة إلا ثورة كامنة فى صدر محترق..

وربما «لا ندرى لهذا سببًا غير ما يسميه علماءُ النفس «بالتعويض». فحافظ يُفرغ ثورته على المدعى العمومى فى الوقت الذى لا يستطيع فيه مهاجمة الإنجليز علانيةً وتلك ملاحظة ظاهرة نلاحظها عند حافظ فى كثير من شعره[٩٢].

وبراعة صاحبنا أنه نفث كل ما فى صدره فى حذر، ووجَّهةُ بحساب وقَدر ففى خفاء يحث فرسان بلده وفى براعة ينبه أبناء وطنه وهو يشهِّر بهؤلاء الذين أجادوا الشعارات الجوفاء التى «لا تسمن ولا تغنى من جوع»، إنهم فى نظره لا يساوون شيئًا إلا إذا ثاروا فطرقوا باب الحرية بأيدٍ مضرجة بالدماء..

وللحرية الحمراء باب بكل يدٍ مضرجة يُدق)

(وقد أثار هذا التصرف من حافظ بعض الباحثين النقاد.. حيث رأوا أنه كان من الأولى أن يثور ويقسو على المستعمرين.. لا أن يبدأ لينًا هينًا معهم ثم يشتد ويحتد مع المصريين لاسيما الهلباوى بك)[٩٣] وهو مأخذٌ لا تستريح النفس إليه.

(ب)

وقد سار الشاعر سيرًا قويًا لم يسخف له معنى ولم تتهافت له عبارة سواء أكان فى حدته أو مداراته وتقيته للأعداء، وهو كما استخدم الأساليب الخبرية قد استخدم الأساليب الإنشائية كالنداء فى قوله: أيها القائمون بالأمر فينا . والاستفهام فى قوله: هل نسيتم ولاءنا والودادا؟ وغير ذلك مثل: أقصاصا أردتم أم كيادا؟ و: أنفوسًا أصبتم أم جمادًا؟ و: أتلك محكمة التفتيش عادت أم عهد نيرون عادا؟

كما استخدم الأمــر فى قوله: خفضوا جيشكم، وناموا هنيئًا، وابتغوا صيدكم، وجوبوا البلادا، فصيدوا العبادا، أحسنوا القتل... إلخ.

كما استخدم الجُمل الدعائية: (لا جرى النيلُ فى نواحيك يا مصر)، (ولا جادك الحيا حيث جادا). (وهذا كله داخل فى فن الخطابة لا محالة) وأما الصور التى سلك فيها طريق التبصرة والاقناع: فهى ما خاطب فيها الإنجليز فى هدوء وسكينة وحلم وطمأنينة كقوله:

لا تظنوا بنا العــقـــوق ولكن أرشــــدونا إذا ضللنا الرشــــادا

لا تُقــيــدوا من أمــة بقـتـــيل صادت الشمس نفسه حين صادا

أحسنوا القتل إن ضننتم بعفو.... أكرمونا بأرضنا.... إنما يكرم الجواد الجوادا... ويجد القارىء سهولة فى العبارات، وسلامةً بين الجمل والكلمات فضلاً عن هذا الترتيب المنطقى المشفوع بالدليل وهذا ما يحمل المخاطب على الإقناع، فالشاعر يتدرج فى تمرده ويتطور فى احتجاجه، حتى إذا علا صوته بالتمرد وارتفع جرسه بالتعرض ولاحت أمام مخيلته ثغرةٌ للمواجهة، علا بها قائلاً: «إنها مثلة تشف عن الغيظ» فإذا أحس بخطر المقال وأحس بهول المقام لجأ إلى الحيطة قائلاً: «ولسنا لغيظكم أندادًا» ذلك على حد المثل الشائع (فلان يضرب ويلاقى) وبهذا القدر من التوفيق استطاع أن يجسّم جرمهم وأن ينبه الجماهير لحرب شعواء وقد اقتنع الطرفان هذا بظلمه وذاك بحقه...!!!

(جـ)

وللشاعر أسلوبه الأدبى، ومعانيه المجازية التى خرجت عن معانيها الحقيقية إلى معان بلاغية يقتضيها المقام، ففى أساليبه الخبرية والإنشائية لم يقصد (بالنداء أو الأمر.... إلخ) حقيقة كل منهما بل ما يدخل فى معنى

التهكم أو التشهير أو التهديد.. إلخ وكذلك لم يقصد بأساليبه الخبرية إيراد فائدة أو لازمها، بل قصد أغراضًا مجازية هى من قبيل التفجع والتوجع أو التحسر والتندر بذلك الغدَّار الدخيل، وهذه المعانى على اختلافها مبثوثة خلال أبياته وكلماته.. على أن الشاعر قد وفق فى اختياره للعبارات المؤثرة والإشارات الموحية فبلغ ما أراد بالكلمة المعبرة واللفظة المصورة فضلاً عن ملائمة كلماته لمعانيها ومواكبة أساليبه لأفكاره وموافقة كل هذا لصدق شعوره مما جعل القصيدة تحتل مكان الصدارة إلى ما شاء الله.

(د)

ولحافظ إبراهيم مجازات عقلية وأخرى لغوية وطائفة من المحسنات البديعية فمن مجازاته العقلية قوله: (لم تغادر أطواقنا الأجيادا)، (صادت الشمس نفسه)، (إنها مثلة تشف عن الغيظ)، (علَّمتنا السكون مهما تمادى)، ومن استعاراته المكنية قوله:

(إنما نحن والحمام سواء) وقوله: (أضحى عليك شوكًا قتادا).

وأما المحسنات البديعية فمنها:

١ . الطباق: بين (القوى والضعيف) فى قوله: كيف يحلو من القوى التشفى... من ضعيفٍ ألقى إليه القيادا؟.

وبين (ضللنا.. الرشادا) فى قوله: «أرشدونا إذا ضللنا الرَّشادا».

وبين (قسوةً واشتدادا) فى قوله:

جاء جُهَّالنا بأمرٍ وجئتم... ضعف ضعفيه قسوةً واشتدادا

٢ . الجناس: بين (ساد وشاد) فى قوله: «ساد فى غفلة الزمان وشادا».

٣ . حسن التقسيم: فى قوله:

خفضوا جيشكم وناموا هنيئا وابتغوا صيدكم وجوبوا البلادا

فقد أبدع فى حشد الكلمات ورصد المفردات فنال حسنَ التقسيم والتنغيم... فقوله: (خفضوا جيشكم) يساوى فى الذوق والعروض (وابتغوا صيدكم)، وكذلك قوله: (ناموا هنيئًا) يساوى (وجوبوا البلادا).

(٤) التلميح بالحوادث: كقوله: (ليتَ شعرى أتلك محكمة التفتيش عادت؟) وكذلك التلميح بالأشخاص كقوله: (أم عهد نيورن عادا؟).

(٥) مراعاة النظير فى:

قوله:

وإذا أعوزتكم ذات طوقٍ بين تلك الربا فصيدوا العبادا

وقوله:

إنما نحن والحمام سواء لم تغادر أطواقنا الأجيادا

وقوله:

لا جرى النيل فى نواحيك يا مصر ولا جادكِ الحيا حيثُ جادا

وقوله:

أنتِ أنبتِ ذلك النبت يا مصرُ فأضحى عليك شوكا قتادا

وهكذا جمع شاعر النيل فى قصيدته بين المجازات العقلية والأساليب البلاغية والمحسنات البديعية - وهى العناصر اللازمة لتفوقه على معاصريه أو - بأسلوب آخر - حرص الشاعر على المقومات اللازمة لخلود كلماته ألا وهى: الوضوح والقوة والجمال. الأمر الذى أفاض على أسلوبه بهجة وجمالاً فكانت أبياته بديعة فى الحسن وشذًا

فى روض. فضلاً عن إيقاع موسيقاها الخلاب وجرسها المؤثر الجذاب...

.٤٠

وارتباط هذه الأبيات بشاعر النيل هنا واضح وانعكاس شخصيته على القصيدة ظاهر ففى القصيدة يتجلى إيمان حافظ بوطنيته كما يبدو حسنُ طويته.. ونظام طريقته فى صراحته تارةً وتهكمه تارةً أخرى وإيثاره للعبارات الواضحة بما يتفق وجو المقام.. «والمَحَقَق على كل حال أن صوته فى الإلقاء ولباقته فى الإيماء كان لهما شأنٌ فى جذب الأسماع إليه وإعجاب الناس به ليس بالشأن اليسير»(٩٤).

وشاعر النيل ذو نمط فريد «بين النمط الذى سنّه البارودى فى أبان النهضة القومية وبين الأنماط المتبعة التى يدعو إليها الشعور بالحرية الشخصية والمزايا الفردية. فهو رجلٌ يدل بشعوره على زمنه ونفسه»(٩٥).

وقد تميَّز فى هذه القصيدة بنزعته الخطابية وصوته فى الإلقاء وتصرُّفه فى الأداء... كما ظهرت نفسيته وروحه وطبيعته المرحة وهذا ما أعانه على تشخيص الداء وما أمكنه من تصوير البلاء وهذا غاية ما يُطلب من الشعراء،... فليس من شأنهم حلُّ المشكلات المعضلات بل حَسبهم أن يثيروا فى القلوب عواطف الرضا أو يبثُّوا فى النفوس أهازيج الظفر أو نقيض ذلك من الأحاسيس مما تتعرض له الإنسانية أينما حلت أو ارتحلت.

وهذا ما وُفق فيه شاعرنا وما حققه من شعور نبيل إذ استطاع أن يُصور ما يعتلج به فؤاده وأن يكشف النقاب عن بعض الخونة وأن يثور على الشعب حينما رضخ للذل واستكان للمهادنة. كل ذلك فى وحدة

واحدة ـ تأبى الفرقة ـ عُرف من خلالها كما عُرفت نفسيته على أتم ما تكون المعرفة.

. ٥ .

والموسيقى الشعرية: هى ذلك النغم النابع من وحدة الوزن..

تسمعها الأذن فتتسرب إلى النفس فينتشى لها الخاطر فتتشربها الروح فتطرب لها الأعضاء... بهذا تستولى الموسيقى على مشاعر القارىء أو السامع فيظل مشدودًا بها، ومأخوذًا بجرسها حتى نهايتها...

وبدهىٌّ أن كل عمل أدبى يعتمد على عنصرين هما: عنصر الإيقاع، وعنصر التصوير. فبهما يستعين الأديب حين يجمع بين الصورة القوية وبين النغمة وبهذا يحرك الخيال ويشخص الأوهام ويحقق الأحلام فى وضح النهار أو عالم اليقظة... ولا جدال فى أنه بين إيقاع الصورة والأديب نسبٌ قوى واتصال أيّما اتصال... بيد أنه لابد أن يكون للأديب حقُّ القوامة والقدرة على توجيه ظلاله الفنية حيثما أراد... فإذا انقلب الأمر فبئس المنقلب إذ أن العمل الأدبىّ ـ حينئذ ـ يصبح وكأنه حشدٌ للكلمات ورصف للعبارات وهذا عينُ التكلّف والتعسف.

أما أبيات شاعرنا فأرى الجمال فيها وقد قارب الكمال... فصدى الموسيقى بعد الانتهاء من النص لا ينتهى بالقارئ والسامع يذكرهما بالمرارة فى فؤاد الشاعر، وبوحشية العدو الكاسر، وبذلك الشعب المتخاذل وبذلك المدعى العمومى الخائن.

ولهذا أقول فى ثقة: إن شاعر النيل قد رُزق التوفيق أيَّما توفيق فشعره وحدة واحدة، ومحسناته البديعية تدل على ملكة قادرة ومهارة

ماهرة على إخضاع معانيه لألفاظه وكلماته لأفكاره دون سرف أو تقتير... فبدت القصيدة بناءً واحدًا لا عوج له، وخشعت القلوب لجرسه فلا تسمع منهم إلا ثناء ولا تحس إلا اعجابًا وإطراءً.

وكما لا يمكن إغفال وحدة القصيدة العام كذلك تجدر الإشارة إلى (بساطة حافظ) وهو يتخير كلمات قصيدته... فهو يتخير ما توحى به عبارات الشارع وألفاظ المقاهى والمنعطفات التى كان يجوبها بل يقيم فيها هو على شاكلتها. فبناؤه ذلك البناء المتواضع القريب من مقهى الشعب..

وإذًا فأفكاره ليست غريبة وألفاظه محببةٌ إلى الأفهام قريبةٌ وليست ذلك فقط.. بل ربما تكون الكلمة غريبة بعض الشيء على السامع ولكنه إذا ما تناولها واستخدمها تصبح قويةً عصريةً...! وربما تكون عاميةً مبتذلة بيد أنه باستخدامه إياها يزيل ما علق بها من آثار الابتذال.. وهذا جهدًا ليس باليسير فربما تحتاج الكلمة المبتذلة إلى التمصير، وعلى كل، فقد أفاء على لغتنا العربية بأجل فائدة وأتم عائدة)[٩٦].

الهوامش

(١) شاعر الشعب، د. سامى الدهان ص ٨٣.

(٢) حافظ إبراهيم ما له وما عليه. د. كامل جمعة. ص ١١٣.

(٣) شوقى ضيف، دراسات فى الشعر العربى المعاصر ص ٥.

(٤) راجع، حافظ إبراهيم ما له وما عليه للدكتور كامل جمعه.

(٥) دراسات فى الشعر العربى المعاصر د. شوقى ضيف ص ٦.

(٦) ديوان حافظ إبراهيم الجزء الثانى ص ٢٠ وما بعدها ط. دار العودة - بيروت - لبنان.

(٧) الخطاب فى هذا البيت وما بعده للإنجليز.

(٨) جاب البلاد: قطعها.

(٩) ذات الطوق: الحمامة المطوقة، لأن لها طوقًا حول عنقها وهو لون يخالف سائر لونها.

(١٠) يريد بالأطواق فى هذا البيت أغلال الأسر والاستعباد. الأجياد: الأعناق، والواحد جيد.

(١١) يقال: أقاد الأمير القاتل بالقتيل ويشير بهذا البيت إلى ما كرره الأطباء من أن وفاة الضابط إنما كانت بضربة الشمس.

(١٢) تعرف محاكم التفتيش بالقسوة والظلم واضطهاد الناس ومصادرة أملاكهم، ثم إحراقهم من غير أن تترك لهم فرصة للدفاع عن أنفسهم. وقد استغلت تلك المحاكم فى اضطهاد العرب فى أسبانيا فى آخر أيامهم بها حتى تم جلاؤهم عنها سنة ١٦٠٩م.

(١٣) المثلة (بالضم): التنكيل، وتشف: تبين وتكشف. الأنداد: النظراء، الواحد ند (بكسر النون).

(١٤) الحجة: السنة.

(١٥) أشفقت: خشيت.

(١٦) المدعى العمومى: إبراهيم الهلباوى بك.

(١٧) يشير إلى ما كان يقال من أن الهلباوى بك، كان قد وعد بأن يكون بعد من رجال القضاء.

(١٨) الحيا: العطر.

(١٩) القتاد: شجر صلب له شوك كالإبر. يخاطب مصر بأنها أحسنت إلى بعض أبنائها وبرت بهم فأساءوا إليها وجحدوا نعمتها..

(٢٠) يريد بالناعق: المدعى العمومى فى هذه القضية. والنعيق (بالعين المهملة، وفى كتب اللغة أنه بالغين المعجمة أفصح): صياح الغراب.

(٢١) المدرة: خطيب القوم والمتكلم عنهم.

● نشرت فى ٢٧ إبريل ١٩٠٧م وفى الديوان جـ ٢ ص ٣٦.

(٢٢) فتى الشعر: يريد نفسه.

(٢٣) العميد: وهو عميد الدولة الإنجليزية فى مصر؟ وهو (اللورد) كرومر، وقد بقى بها ما يزيد على أربعة وعشرين عامًا، فقد حضر إليها فى سبتمبر ١٨٨٣م وتركها فى سنة ١٩٠٧م.

(٢٤) الطود: الجبل العظيم. والشامخ: المرتفع. والمزبد: الذى يقذف بالزّبد (بالتحريك) وهو ما يعلو الماء من رغوة، ولا يكون ذلك إلا عند هيجان البحر وثورته. شبه الشاعر (اللورد) بالجبل العظيم فى رسوخه فى السياسة وعلو شأنه، كما شبهه بالبحر المزبد فى ثورته وغضبه.

(٢٥) مُيَّدا: مائلة مضطربة الواحد مائد. وشبه كرومر بفرعون، ولما كان يعرف به من الجبروت.

(٢٦) الجدا (بفتح الجيم وتخفيف الدال): العطاء.

(٢٧) نُطرى: نمدح. والأيادى: النعم. وأفضتها: أجريتها. ويشير فى هذا البيت والبيتين اللذين بعده إلى مآثر (اللورد) فى مصر، من نشر الأمن فى ربوع البلاد والأخذ بنصر الضعفاء، وإنصافهم من ظلم الأقوياء.

(٢٨) الأسى: الحزن. انظر التعريف بحادثة دنشواى.

(٢٩) رميك: أى اتهامك. والغر: الذى لا تجربة له بالأمور لقصر نظره. ومجردا: أى غير مزود بأسباب النهوض والجدّ.

(٣٠) ترخَّص: لان وسهل.

(٣١) بسطة الغنى: سعته.

(٣٢) يشير بهذا البيت إلى الإصلاحات المتعلقة بالرى وتحسين النظم فى صرف مياه النيل التى أجريت فى عهد اللورد كرومر.

(٣٣) سن: شرع. يشير بهذا البيت إلى حرية الصحافة فى عهد اللورد.

(٣٤) وآخر: معطوف على قوله السابق: «فقائل». ويقصر: أى يحبس. وهمّه: أى همته وعزمه.

(٣٥) الإثراء: كثرة الأموال.

(٣٦) ارى به: تهاون به ووضع من شأنه.

(٣٧) يريد «بأم اللغات»: اللغة العربية.

(٣٨) وافيت: أى حضرت إلى مصر. والقطران: مصر والسودان، ويريد «بالراية»: الراية المصرية.

وتمرد: عصى وخرج عن الطاعة. يشير هذا البيت إلى رأى السياسة البريطانية الذى أشارت به على مصر من إخلاء السودان فى سنة ١٨٨٤م عندما ثار المهدى، حتى استفحل أمره وانتشرت دعوته، وتألبت معظم القبائل على الحكومة؛ وقد أعيد فتحه بعد ذلك بالجيش المصرى والإنجليزى فى سنة ١٩٨٧م.

(٣٩) طاح: أى ذهب وضاع. ومصوّع: ثغر معروف على البحر الأحمر/ وقد كان فى يد مصر، ثم اضطرت إلى إخلائه أيام الحروب السودانية، فضمته إيطاليا إلى أملاكها بموافقة إنجلترا.

(٤٠) ظلماته: أى ظلمات السودان؛ ويريد ظلمات الجهل التى فيه. ويشير الشاعر إلى ما حدث فى عهد اللورد كرومر من منع بعض الصحف المصرية، ومنها صحيفة المؤيد، من دخول السودان خوفًا من نشر الدعاية ضد الإنجليز.

(٤١) المغامز: المطاعن. ويشير الشاعر إلى ما ذكره اللورد كرومر فى تقريره عن مصر، حين تركها، من طعن على المصريين.

(٤٢) يناديك: أى هذا الآخر الذى سبق ذكره فى قوله: «وآخر لم يقصر... إلخ».

(٤٣) العسجد: الذهب الخالص.

(٤٤) الصدى: ما يرجع من الصوت إذا خرج ووجد ما يحبسه، ولذلك يقال له: زجع الصدى.

(٤٥) المسدد: المصوب نحو الهدف.

(٤٦) السرمد: الدائم.

(٤٧) الندوة: المكان يجتمع فيه القوم للتشاور. ويشير إلى ما كان يراد من إنشاء مجلس الشورى مختلط من المصريين والأجانب.

(٤٨) المدى: الغاية. ويشير بهذا البيت إلى ما استولى عليه الأجانب من أراضينا الزراعية بما نصبوه من أشراك الديون ذوات الفوائد المرهقة.

(٤٩) مارس الأمر: عاجله وزاوله. يشير فى هذا البيت إلى أرباب الاقتصاد الخبيرين باكتساب المال واستثماره من الأجانب، وجهل المصريين بهذا الفن.

(٥٠) مفندا: مكذبا مجهلاً.

(٥١) يريد قصر الدوبارة الذى كان يسكنه العميد.

(٥٢) ولد غورست سنة ١٨٦١م، وتوفى فى يونية سنة ١٩١١م. وكان مستشارًا بوزارة المالية المصرية من سنة ١٨٨٩م إلى سنة ١٩٠٤م. وفى سنة ١٩٠٧م عين عميدًا للدولة الإنجليزية مكان اللورد كرومر.

(٥٣) الديوان جـ ٢ ص ٣٢ وما بعده.

(٥٤) بنات السمر: معانيه وخواطره. ويريد «بالشاعر المجيد»: نفسه.

(٥٥) أسعدتنى: أعانتنى. وفى كتب اللغة: أن (شكا) يتعدّى بنفسه لا بالحرف.

(٥٦) العوارف: النعم؛ الواحد عارفة. وفى البيت تعريض بما كان يمنّ به اللورد كرومر على المصريين من أنه أنهضهم وأصلح أحوالهم.

(٥٧) الخطاب فى «أذيقونا» للمحتلين. وفى قوله «بمهد المصلحين» تهكم ظاهر.

(٥٨) اعلولى: علا.

(٥٩) المشفقون: الخائفون.

(٦٠) نغر الجرح: سال دمه. واندمل: التأم.

(٦١) السرائر: جمع سريرة، وهى ما يسره الإنسان من أمره. والجليد: الصبور.

(٦٢) العنت: الأذى والمشقة.

(٦٣) روّعه: أخافه وأفزعه.

(٦٤) طاوله بجاهه: فاخره به. وطاله يطوله: علاه وارتفع عليه. ويريد «بالركن الشديد»: العزة والمنعة. والخطاب فى هذا البيت وما بعده للإنجليز.

(٦٥) نعاجزكم: نأتى بما يعجزكم.

(٦٦) يريد «بالعهود»: وعود ساسة الإنجليز بالجلاء عن مصر.

(٦٧) صاحب التقرير، هو اللورد كرومر، وكان قد اتهم المصريين فى أحد تقريراته التى كان يرفعها لدولته بعدم الاعتراف بجميل الدولة البريطانية عليهم. والكنود: الكفر بالنعمة.

(٦٨) أبد الأبيد: أى أبد الدهر.

(٦٩) المنهل: المطر يشتد انصبابه.

(٧٠) يريد «بالشهود الأربعة»: من أعدموا فى دنشواى، فهم بما لقوا شهود عدول على ظلم العبيد.

(٧١) قتيل الشمس: الضابط الإنجليزى الذى مات فى حادثة دنشواى بضربة الشمس، واتهم الأهلون بقتله. والهاجع: النائم، يريد أن ما أصاب الناس من العذاب بسبب هذا القتيل جعلهم يهبُّون ويستيقظون إلى المطالبة بالحرية.

(٧٢) كل جبار عنيد: يريد مستشار المعارف إذ ذاك، وهو المستر دنلوب وأعوانه.

(٧٣) الحول: القوة.

(٧٤) أدال منها: أذلها وأذهب عزها ودولتها، وتبيد: تهلك.

(٧٥) الجنان: القلب.

(٧٦) غلادستون، هو وليم غلادستون. ولد بليفربول فى التاسع والعشرين من شهر سبتمبر سنة ١٨٠٩م، وكان من ساسة الإنجليز المشهورين، وتولى وزارة المالية مرتين، ثم كان رئيسًا لمجلس النواب، ثم رأس الوزارة الإنجليزية أربع مرات. وتوفى فى ١٩ مايو سنة ١٨٩٨م.

(٧٧) السوابق: الخيل التى تجىء سابقة فى الحلبة؛ ويريد أعلام الأمة ونوابغها. والوئيد من المشى: البطىء منه.

(٧٨) الفضل هو أبو العباس الفضل بن سهل أخو الحسن بن سهل، أسلم على يد المأمون فى سنة ١٩٠هـ. وكان وزيرًا للرشيد؛ وكان يلقب بذى الرياستين لأنه كان رب القلم والسيف. ومات مقتولاً يوم الخميس ثانى شعبان سنة ٢٠٢هـ. وابن العميد: هو الوزير الفضل محمد بن الحسين بن العميد الفارسى الأصل، وزر لركن الدولة أبى على بن بويه، والد عضد الدولة المشهور فى سنة ٣٢٨هـ. فساس دونته ووطد أركانها، ومازال فى وزارته محط رحال الشعراء والأدباء حتى توفى سنة ٣٦٠هـ. وخص الفضل وابن العميد لتشجيعهما العلم والأدب.

(٧٩) المطا: الظهر. يطلب إلى العميد البريطانى أن يجعل على وزارة المعارف أمثال الفضل وابن العميد، على ألا يشل أيديهم بمستشار (كدنلوب).

(٨٠) العهد: القديم الذى أتى عليه عهد طويل. يقول إن بمجلس الشورى فى مصر عيوبًا قديمة استعصى شفاؤها من قديم على المصلحين.

(٨١) يريد «باللحى البيضاء» أعضاء مجلس الشورى والجمعية العمومية. و «بحمر الملابس والخدود»: الإنجليز. وكان مما يتميز به جنودهم إذ ذاك الأكيسة الحمراء.

(٨٢) القيْنُ: الحدّاد.

(٨٣) دار ندوتكم: يريد مجلس العموم البريطانى. ويشير بهذا البيت والأبيات الأربعة قبله

لضعف رأى مجلس الشورى والجمعية العمومية، لأن الحكومة كانت حرة فى قبول رأيهما أو ردّه.

(٨٤) الرغيد: الواسع الطيب.

(٨٥) الشنشنة: العادة والطبيعة.

(٨٦) الشأو: الغاية.

(٨٧) يلاحظ أنه لم يرد فى كتب اللغة «إيقام» بياء بعد الهمزة كما فى هذا البيت. والذى ورد «إقام» بدون ياء مصدر أقام.

(٨٨) الوطيد: الثابت القوى. و «بالأمل» متعلق بـ «زوّدت».

(٨٩) حاطه يحوطه: حفظه وتعهده.

(٩٠) أنحى علينا، أى أقبل علينا بالشدة والقصوة والعنف.

(٩١) راجع (حافظ وشوقى) للأستاذ: حسن كامل الصيرفى.

(٩٢) المرجع نفسه.

(٩٣) (حافظ إبراهيم شاعر النيل) للدكتور: عبد الحميد سند الجندى.

(٩٤) شعراء مصر وبيئتهم فى الجيل الماضى للعقاد ص ١٥.

(٩٥) المرجع السابق ص ٢٠.

(٩٦) راجع (حافظ إبراهيم شاعر النيل) د. عبد الحميد سند الجندى.

الفصل الثالث
بين حافظ وشوقى

موازنة

بعد هذا العرض المتشابه لما جادت به قريحة كل من هذين الفحلين من الشعراء يبدو لنا أن الشاعرين مختلفان جدَّ الاختلاف:-

-١-

(فشوقى) يخاطب دنشواى بعد ما دهمتها الأيام ومر عليها العام.. فهو باكٍ راثٍ يذكر شهداءها وسجناءها وأراملها وأيتامها فيأمر حمامها بالنواح.. وهو بعد أن نبه القوم سجل أرقهم وقلقهم وأنهم لا يتمتعون بنوم وكيف ينعمون بنوم والحادث لا يزال ماثلاً نُصب أعينهم..؟

(وشوقى) يفيضُ فى تصوير ذلك اليوم تصويرًا مفصلاً.. يُعنى فيه بالجزئيات التى أغفلها (حافظ) كما يُعنى بالفرعيات التى أهملها صاحبه.. وكأنه بتصويره وتفصيله وتحليله على هذا النحو يلهب من طريق خفى مشاعر الجماهير ويؤلّب بطريق غير مرئىّ على الباغين.. وهو دون شكٍ يسعى ليحفر تلك الصورة فى مُخَيّلة الشعب فيتذكرها ولا ينسى فيعمل ولا يكسل ويتيقظ ولا ينام.

***

(أما حافظ) فقد خاطب من أول بيت أولى الأمر (القائمين فينا) قاصدًا الساسة الإنجليز وهذه أول لطمة وجهها للحاكم الرسمى للبلاد .

ثم ينال من هؤلاء الإنجليز بالتهكم المر وبالسخرية اللاذعة وبالعتاب العنيف حتى إذا ما أتى دور الشعب تناوله بالنقد لسكونه وسكوته المعيب...

وهو - فى هذا - يحمسه ويحرضه - من طريق غير مرئى - إلى التمرد والاحتجاج فإذا ما تذكر فى مخيلته المدعى العمومى علظ له فى القول وكال له السب، وسجل جريمته وخيانته أمام الناس والتاريخ فاستمطر عليه لعناتٍ وأهل الأرض.

- ٢ -

(وحافظ) بطبيعته واضح الخلُق صريح الوطنية لا يُجيد المداهنة بقدر ما يجيد التهكم والسخرية. وصراحته ووضوحه يظهران فى:

أولاً : مبادرته بنشر قصيدته إبّان الحادثة .

ثانيًا : توجيه الخطاب والعتاب من أول بيت لأولى الأمر من المستعمرين..

ثالثًا : فى اصطدامه بالمدعى العمومى وهو يعلم مكانته ومنزلته لدى المستعمر كما يعلم أنه يستطيع أن ينال منه كما يريد.. وعلى الرغم من ذلك كله، فقد اصطدم به وتعرض له واستمطر عليه لعنات السماء، واستعدى عليه الناس جمعاء..

***

أما (شوقى) فحذرٌ يقظ لا يحتك بمستعمر ولا ينال من خائن ولا يلوم شعبًا، فدهاؤه يقتضى منه أن يتأنى وقتًا طويلاً وأن يتمّهل عامًا كاملاً وكأنه خُيّل إليه أن الحادثة قد نُسيت وأنه أمن لوم الحاكم أو شر المستعمر، وحين ينظم قصيدته لا يجدُ مفرًا من المواجهة (مواجهة كرومر) فيدعه لينتزع من بطون التاريخ «كرومر» آخر هو «نيرون»..!!

ويتهم الدكتور: «عبد الحميد الجندى» حافظًا بالاستجداء والملاينة والتلطف الشديد مع اللورد كرومر ثم يفضل عليه صاحبه (شوقى) الذى سكت عامًا كاملاً حتى حانت له فرصة الكلام - ويظل على هذا الدرب إلى أن يقول: «يخيل إلّى وأنا أقرأ قصيدة حافظ أنه كان يقول وهو يلتفت وراءه خشية أن يعود اللورد» (١)

وأنا لست مع هذا الرأى فشاعر النيل ما وُصِفَ بجبنٍ وما تخلى عن قضايا مجتمعه يومًا حتى فاز بهذا اللقب دون منازعٍ وتفرد بشرف (الشاعر الاجتماعى الأول).. وإذا كان (شوقى) أخذالحيطة عامًا كاملاً مع مكانته.. أفلا يجدر بشاعر قد تكلم على الفور أن يتلطف فيلوح بقَدَرٍ وحذر..؟

أرى أن هذا أوفق وأجدر بشاعر يعلم أنه أقل هيبّة وجلالاً من صاحبه عند أولى الأمر كما أن البطش به أهون وأيسر من صاحبه عند هؤلاء الظالمين... ومع هذا كله فقد سجل على اللورد بعض الهنات وإن كانت فى هوادةٍ ورفق وإذا كان فى كثير من أبياته يقسو على المستعمرين فهو من باب استنهاض الهمة واستثارة الحمية ولا يمنع ذلك من مراعاة التقية - كما سبق - ..

ويعلل بعض الأدباء موقف «حافظ» بأنه « لم تتوافر له أسباب الحرية التامة ومقوماتها بالقدر الذى توافر لشوقى، فكان يعمل فى

أحيان كثيرة على أن تكون علاقته بذوى النفوذ والسلطان حسنةً ما استطاع وهو إلى جانب هذا يُمثّل الروح المصرية الشعبية أكثر من «شوقى».. وشاعرنا لم يكن على وثيق صلة بالخديو الذى كان يناصبه اللورد كرومر العداء كما كانت الحال مع شوقى » (٢)

وقد ظهرت شخصية «شاعر النيل» فى أبيات أكثر من شخصية «أمير الشعراء» كما يتبين إلى أى مدى تكون وطنية (حافظ) وصراحته وباعه الطويل ووطنيته التى بزَّ بها منافسه، لقد ظهرت أبيات (حافظ) وهى تموج وتتدفق بحرارة الروح الثائرة وتجتر بالإخلاص كما تتسم بالصدق الوطنى والعاطفة القومية والسمات الشرقية المصرية أكثر من أبيات (شوقى)

يقول الأستاذ/ أحمد حسن الزيات: « أما صياغة حافظ فهى موهبته الأولى ومزيَّته الظاهرة وهو فى ذلك ثانى الخمسة (٣) الذين تيقظت على دعوتهم نهضة الشعر وتجددت على صنعتهم بلاغة القصيدة، ولعله انفرد عن هؤلاء جميعًا بالصدق فى تعبيره عن هموم قلبه وتفسيره لأمانى شعبه وتصويره مآسى عصره» (٤)

- ٣ -

وفارق آخر بين ظروف كل منهما: فشوقى.. الذى قال قصيدته بعد عام - وجاءت أبياته تسجيلا لذكرى المأساة أملا فى عطف الإنجليز وعفوهم على المسجونين كانت قصيدته خفيفة الواقع كثيرة الدمع هادئة النقد مصورةً لتفاصيل المأساة. أما قصيدة (حافظ) فلأنها قيلت فى فورة الحادثة فقد جاءت حامية تفيض دامية حرارة وتمتلئ سُخريَّة ومرارةً... وقد خاضت فى أسباب المأساة وما جرى فيها.

و (شوقى) قصد إلى تفصيل الجزئيات وتحليل الفرعيات باستفاضة فوُّفق فى تبشيع الحادثة أمام المستعمرين عَلّهُم يكفوا عن وحشيتهم ويَمُنّوا بإطلاق سراح المسجونين كما أثار قومه ليجمعوا أمرهم ويشحذوا هممهم فيتدبروا طريقًا للثأر والقصاص.

أما (حافظ) فقد جعل من نفسه محاميًا يدافع عن القضية ويفند دعوى خصمه ويقارع الحجة بالحجة ويقابل الرأى بالدليل. ولذا لجأ إلى سمات خطابية قوية الإثارة، غير أن عرضه للقضية كان عرضًا عامًا فهو لم يُفَصّل كما فعل « أحمد شوقى» - بل عمّم التصوير واكتفى بالإشارة عن الإطالة وبالكلمة الموحية عن الوقفة المتأنية - فهو لم يحلل جزئيات المأساة بل اجتزأ بلفظ قليل واضح فاضح، كاستخدامه لكلمات (التشفى، المُثلة، تشف عن الغيظ، أحسنوا القتل، أقصاصًا أردتم، محكمة التفتيش... الخ) فهى إشارات تتوهج بالمعانى المؤثرة. وربما كان الدافع إلى إيثار هذه السبيل خياله الذى لا يميل إلى الاستقصاء إذا ما قيس بخيال شوقى البعيد.

وربما كان الحامل له إلى تلك السبيل أنه زهتم بجوهر القضية أكثر من عنايته بعرضها/ «ولعل أهم الفروق بين الشاعرين أن شعر حافظ واضح قريب إلى الأفهام لا يجز الإنسان عناًء كبيرا فى إدراك ما يرمى إليه..... أما شعر (شوقى) فالأنسان يجد العناء أحيانًا فى فهمه» (٥) ومن هنا تتجلى للباحث صراحة الأول وغموض الثانى.. ولعل مردّ ذلك عائد إلى ما بين الشاعرين من اختلاف فى شخصيتهما ونفسيتهما وطريقة كل منهما فى الدفاع..

يقول الدكتور طه حسن: « أما طبيعة شوقى فهى معقدة ينبئنا شوقى بتعقيدها، فيها أثر من العرب وأثر من الترك وأثر من اليونان

وأثر من الشـركس التقت كل هذه الآثار.. واصطلحت على تكوين نفس شـوقى فكانت هذه النفس بحكم الطبيعة أو الطبائع أبعد الأشياء عن البساطة وأقواها عن السذاجة وهى بحكم هذا التعقيد والتركيب خصبة كأشدّ ما يكون الخصب » (٦)

- ٤ -

وأسلوب حافظ: يمتاز عن شوقى بأنه أجزلُ لفظًا وأقوى سبكًا وأبعده رنينًا وأكثر تجريدًا وأقل تقليدًا وأحكم إشارةً وأقوى حجة وأصرح بيانًا ثم هو أطول نفسًا وأقل كلفًا وأصدق شعورًا وأرهف حسًا.!!! أما (شوقى) فى قصيدته - فهو أهدأ ثورةً وأكثر تفصيلاً وأوفى تحليلاً وأخصب خيالاً وأعمق تصويرًا وأبعد من روح الخطابة.

على أن كلاً منهما قد التقى مع صاحبه فى بعض الجزئيات.. «فالحمام» استخدمه شوقى كما استخدمه حافظ لكن (حافظا) قد جعل الشعب المصرى لا يَفضُل «الحمام» قيمّة غند المستعمرين (فإنا نحن والحمام سواء) وهو لم يذكرالشاعرين هذا بدونْ تعليل بل التمس الحكمة لذلك بما يدخل فى باب التهكم والاستخفاف ألا وهى: أن أطواق المستعمر التى تطوقنا لم تغادر أجيادنا ولا أعناقنا فلأجل التشبيه يطلب الشاعر من المستعمر على سبيل التهكم قائلاً:

وإذا أعوزتكم ذاتُ طوق بين تلك الرُّبا فصيدوا العبادا

أما (شوقى) فقد تلاعبَ بالحمائم وجعل بديلَها الحِمام من هنا نرى حافظا قد وفق أكثر من شوقى فى استغلاله هذه الجزئية..

***

«ونيرون» رمز الطغيان استغله كل من الشاعرين.. إلا أن حافظا لم يزد على أن تساءل فى سذاجة أنيرون عادا؟

بينما خاطب شوقى « نيرون» نفسه قائلاً:

إنك لو أدركتَ عهد كرومر   لعرفت كيف تنفَّذ الأحكامُ

(فنيرون) شوقى أقوى من (نيرون) حافظ واستغلال شوقى له أوفق من صاحبه وأبرع..!!

***

وتصوير الشعب المصرى عند كل منهما مختلف جد الاختلاف، فالشعب عند (حافظ) قد طال عليه زمن الاستعباد وامتد به عهد الاستعمار حتى رضى السكوت على الهوان فأصبحت « أمة النيل» تكبر عدوها وتخافه وهى لا تجيد إلا ترديد الكلمات وتصعيد الحسرات، أما الشعب عند شوقى فهو لا ينام وإن نامت الأحياء فالأحلام تنفى عنه طيب المنام إذ هى ليست أحلامًا ولا أوهامًا بل حقائق مؤكدة باكية وشوقى يقرر أن الشعب ليس ينام فإذا كان الكلام للمستعمرين فقد خرج عن معناه الأصلى إلى غرض الإشفاق والترحم أو العطف والإنعام. أما إذا كان مسوقًا لقصد التقرير فربما كان ذلك من قبيل الحقيقة إذ كانت حال الشعب هكذا...

وربما يكون ذلك من قبيل التحريض للشعب على اليقظة من الغفلة والإهمال.!! بيد أن توجيه شوقى غير ظاهر وتحريضه غير مباشر.

ولعل اختلاف كل منهما فى تصوير الشعب راجع إلى اختلاف الشعب نفسه ما بين العامين أو الوقت ما بين القصيدتين، فما مرَّ على الشعب فيما بين العامين من الأحداث كان له صدى عند كل منهما

ولكل وجهته وتجربته الخاصة التى تُشكل نظرته للأشياء والأحياء، ولا نغفل رقة «شوقى» ودماثة خُلُقه ومجاملته لأرباب نعمائه ولعل هذا ما جعله يتلطف فى مخاطبة الشعب، أو ما دفعه ليتخفف مع الاستعمار.

وللباحث أن يتوقع تأثير شوقى بحافظ فى قصيدته إذ أن حافظًا هو السابق فلم لا يكون قد تأثر بصاحبه فى معانيه فالتقى معه فى بعض الجزئيات السابق ذكرها. أو لَم لا يكون قد تأثر (شوقى) بما كتبه (قاسم أمين) أيضًا إبّان الحادثة ووقت تنفيذ الأحكام؟.. أو لم لا يكون قد تأثر بمقالات (مصطفى كامل) وقد كان لها دويٌّ هائل وصدى فى أسماع العالم بأسره... وقد كانت هى الأخرى دامية حامية..

أما حافظ فقد سبق هؤلاء جميعًا بنظمه لقصيدته فى فور الحادثة ومن المعلوم للسابق فضلاً لا يُنكر وأن للمتقدم يدا لا تجحد..

- ٥ -

ومن ناحية الموسيقى: أستطيع أن أقرر فى اطمئنان أن موسيقى (حافظ) أجمل وأتم وأكمل منها عند (شوقى).. فـ (شوقى) جاء بموسيقى أشبه بموسيقى (الجنائز) بل أشبه بالأنين وصياحُها أقرب إلى النواح الذى يصحَبُ الموتى ففيها ألحان من الحداد تجعل القلب كسيرًا وشتان ما بين هذه وموسيقى حافظ الذى لم يتكلفْ ولم يتعسفْ ولم يعبث بتركيب كما هو الحال عند (شوقى)

و(حافظ) قدَّم استخدام الأحداث واستخدام لها ما يناسبها من التعبيرات والمحسنات وكأنها صادرةٌ عن الموقف ذاتها تابعةً للمعانى نفسها بعيدةً عن العبث والزَيف اللفظّى.. كما ضمن لها بشيوع صدقه الفنى وحدةً قوية جعلها تعيشُ مع موسيقاه خطوة خطوة بعيدة عن

التعقيدات والمترادفات وقد ألبسها روحًا لطيفة خفيفة ساخرة ساحرة، كل ذلك ضمن لها جوًا من الموسيقى وظلاً من الإيقاع...

***

والجدير بالذكر أن (شوقى) كان لايُنشد شعره بنفسه أمام السامعين على عكس ما كان من (حافظ) ولإلقاء الشاعر بنفسه أثر لا يمكن إغفاله وقد اختلف الأدباء حول تحليل هذه الظاهرة عند شوقى، فقيل: « إنه كان منخفض الصوت لا يمكنه إسماع الجماهير» وقيل غير ذلك. لعل شيئًا من ذلك هو سبب اختلاف الشاعرين وأيمًا كان فلحافظ قصَبُ السبق فى هذا المضمار.

وطريقة حافظ فى الإلقاء قد انتزعت من الجماهير التصفيقَ والتحليق والإعجاب، وهذا أمر يفقده (أمير الشعراء).. «لا أحسب شاعرًا يجيد الإنشاد كما يجيده حافظ، وان له صوتًا جهيرًا فخما رائعِ المقاطع، فإذا هو وقف ينشد الجماهير هزها هزًا ورفع بالترتيل حظ الكلام درجاتٍ على درجات» (١٧) ويقول الدكتور على الجندى:

«وقد كان حافظ مديد النفس جهير الصوت يُحسن إخراج الحروف من مخارجها ويعرف أين يقف؟ ومتى يجهر ومتى يهمس؟ - وقد كان العقاد يقول لحافظ حين يسمع إنشاده: سجل شعرك فى اسطونات»(٨).. إذًا فلا عجب إذا أحسَّ القارئ لقصيدة (حافظ) بشىء من الارتياح والانشراح!! فشتان ما بين موسيقى (شوقى) التى تُجدد هامد الآلام وموسيقى (حافظ) التى تبعث الآمال، إذ الأحزان تقتل الهمة وتوحى بالشكوك والتشاؤم..!

نعم: قد تكون الأحزان وسيلة لتطهير النفوس، والآلام مدعاة لتحرير العقول ودافعة للتسامى على قيود الحياة.. بيد أنها إذا رانت على الأفئدة أو بولغ فى الانتفاع بها أضحت قتلاً للهمم وشبحًا للهزائم.

وهكذا كانت موسيقى شوقى باكية قاتمة فيها الصرامة والجهامة والسواد والكآبة. أما (موسيقى حافظ) فهى دافعة إلى الأمام على طريق الكفاح والانتقام فجددت اليأس أملاً وحولت الخوف أمنًا.

وفارق آخر بين كل منهما: فشوقى وقف موقف المسجل للحادثة وبدا فى ثوب المحايد أو القريب منه... فلا هجوم منه على الأعداء ولا تعليق منه على الحادثة، ولاغضبة للكارثة... غير أنها وسيلة ليست فى كل الجوانب، فالرجل الذى يسجل من أجل التسجيل ويؤرخ من أجل التاريخ دون أن ينفعل بما يجرى حوله فهذه ليست سلبية عند أهل التاريخ.

بيد أنها سلبية رجل داهية لا يحب أن تظهر عليه علامات الكراهية أو تبدو عليه أعراض الاستياء؛ لذا فهو يتخذ له وقاية من العداوة وأسلحة من المجاراة يستر وراءها ما بيَّته ويحجب خلفها ما نواه..

وقد التمست آنفا فى تقديمى له المعاذير.. ولكن هل يسلِّم القلبُ له فيعذُره..؟ وكأنى أرى شاعرنا مخيرا بين أمرين أحلاهما مرٌّ.. أيدافع عن شعبه.. أم يحافظ على نفسه؟ أيدافع عن الجماهير.. أم يحافظ على قصر الأمير..؟ وحاوّل (شوقى) جهده أن يموج بينهما ففشل وطالت المدة ولكن دون جدوى، أراد أن يرضى الجماهير مع الأمير فلم ينَلْ ما أراد، ولم يجنِ من توفيق بقدر ما أصيب بإخفاق وتلفيق فجاء مقنعًا بغلاف الحيطة والحذر.. بينما قدم (شاعر النيل) جهدًا ليس بقليل إذ جعل من نفسه محاميًا عن قضية بلاده - بما رُزق من طاقة ومهارة، وفرقٌ شاسع ما بين الحائر المتردد والذائد المتقدم..!!

- ٦ -

ويرى بعض الأدباء أنه لا يجوز تطبيق القوانين النقدية على شعر (شوقى) فهو عنده الشاعر الكامل وشعره من صنيع الطبيعة فلا يُقيّد بقيد فيقول عنه: «ولد منشدًا كما ولد البلبل مغردا.. فالحكم على شعره بقوانين النقد الوضعية وآراء الناقدين الشخصية لا يضعه فى مكانه ولا يزنه بميزانه» (٩)

فهل هذا مبررٌ يطمئن له القلب؟ وإذا كان شوقى بلبلاً مغردًا فمن المعلوم أنه ربيب إمارة وحبيس قصر ومن المعلوم عندى أن الطائر الحبيس إما أن يغرد أو لا يغرد... نعم: كان حبيسًا ومقيدًا إذا ما قيس بشاعر المجتمع ورجل الشعب الذى كان يتحدث بحساب ويتحرك بقدر مُحدد مرسوم ولعل هذا من الانصاف أن نذكره ولعلها معذرة لتلك الموهبة التى رزقها أمير الشعراء.

❖❖❖

من أجل هذا كان اختلاف الشاعرين منهجًا وتفكيرًا وأسلوبًا وضعفًا وصدقًا وزيفًا.. إلخ.

لا أعنى من وراء هذا كله أن أتهم (شوقى) بقلة الإخلاص أو بعدم الوطنية أو ما شاكل ذلك كلا وألف كلا... فشوقى أمير الشعراء، وشاعر الشرق، وحامى لغة القرآن والغيور على وطنه. وإنما أعنى أنه قصرٌ فى هذا المضمار، وأخفق أيضا فى محاولته التوفيق بين وظيفته كأمير وواجبه نحو الجماهير!!! فكان عمله الأدبى أيضًا غير مُوفق لا محالة.

الهوامش

(١) حافظ إبراهيم شاعر النيل للدكتور عبد الحميد الجندى ص ١٧١.

(٢) حافظ إبراهيم الشاعر السياسى. للأستاذ : روفائيل مسيحة ص٧٧.

(٣) الخمسة هم : البارودى وحافظ وصبرى وشوقى ومطران.

(٤) من كتاب وحى الرسالة للأستاذ: أحمد حسن الزيات ط.٢ ص ٢٤٩.

(٥) حافظ شاعر النيل د. عبد الحميد الجندى ض ٢٠٨.

(٦) حافظ وشوقى د. طه حسين ص ١٩٩.

(٧) ذكرى الشاعرين للشيخ البشرى. ص ١٥.

(٨) فى كتاب الشعراء وإنشاد الشعر. د. الجندى. ص٦٣.

(٩) وحى الرسالة للأستاذ أحمد حسن الزيات ط ٢ ص ٢٦٣.

الفصل الرابع
صدى المأساة عند الشعراء الآخرين

أحمد محرم *

شاعر الوطنية وشاعر الإسلام

فى الوقت الذى صمت فيه شوقى عامًا، وخاطب فيه حافظ القائمين بالأمر فى خشوع وحيطة أرى (محرما) يصيح بلا مواربة أو مداهنة فى وجوه المحتلين بسخطه - منددًا بالفجيعة مدويًا بالمأساة - يقول الأستاذ/ محمد الجيوشى:

«بينما نرى هذا من الشاعرين اللذين لم يدع ذكرهما مجالاً لغيرهما من الشعراء المعاصرين إلا قليلاً إذا بنا نرى «محرمًا» يرسل صواعقه تتنزل على رءوس المحتلين كالحمم فتصيب منهم «مقتلاً» ويتوعدهم باستمرار الكفاح حتى يسترد الوطن حقه السليب ويعود له مجده الضائع ولن يعوقه عن عزمه ما ينادون به من سياسة الوفاق فما هى إلا سكنات لاتقنع الأحرار ولاتُنسى المصاب ألم الفجيعة»

مِن الأمانة العلمية إذًا: أن أُشيد بموقف «أحمد محرم» الذى فاقَ به موقف حافظ إبراهيم؛ ولذا فبعض النقاد يفضلون «محرمًا» على

حافظ إبراهيم ويعدونه من كبار شعراء النهضة وشاعر الوطنية والإسلام بلا منازع...!!! ويكفينا فى هذا المقام أن نستمع إليه وهو يتغنى بحبه لمصر غناء الصوفية فأصبح وكأنه قد فنى بها وغاب عنه وعيه فأصبح يراها كل شىء.

يقول فى قصيدة «إيمان المخلصين»

فإن يسألوا: ما حبُ مصر فإنه دمى وفؤادى والجوانحُ والصدر

أخافُ وأرجو وهى جهدٌ مخافتى ومرمى رجائى لاخفاءٌ ولانكر

هى القدر الجارى هى السُخْطُ والرضى هى الدِّينُ والدنيا هى الناس والدهر

ولكن يا ترى لماذا أُهمل شعره...؟ ولعل ذلك يرجع إلى أمورٍ هى:

(١ - لم يكتب لأثاره الأدبيةِ أن تُجمع وتطبع كما كتب أو قدر لغيره من الشعراء بل ظل شعره موزعًا بين الصحف والمجلات والمخطوطات ولهذا انصرف الباحثون إلى الآثار المطبوعة لسهولتها ومضى ركب الأدباء اللاحقين على ذلك الدرب. ولعلها إشارة إلى ما بذلته من جهدٍ فى جمع تراثه الخاص بهذه المأساة.

٢ - بُعده عن الأحزاب السياسية التى كانت ترفع وتخفض.

٣ - طبيعته الأدبية التى كانت تنأى عن مدح الكبراء والسادة.

٤ - أضف إلى ذلك إقامته بين أحضان الريف وتركه العاصمة).[١]

وبعد: فللشاعر أربع قصائد: وهذه أولى قصائده التى نظمها فور الحادثة:

أتلك مصارعُ الْمستضعفينا ... فما بالُ الْهداةِ الْمصلحينا؟

أجيبي دنشواى فإن تكوني ... عييتِ عن الجوابِ فما عيينا

هُمُو أخذوك بالنكبات حَرّى ... وبالأهوال شتّى يرتمينا

تذُوقين العذاب وهم نشاوى ... يُغَنّون «المشانق» ناعمينا

تطوف بها الأرامل واليتامى ... تَضجُّ وتذرف الدَّمع السَّخينا

وتعطفها السياط على رجالٍ ... بِمُطّرح الهوان مُمَزَّقينا

تعاورهم ألوفُ القوم صرعى ... تطير جلودهم مِمّا لقينا

أمِن دعوى التعصب وهى زُورٌ ... تُباح دماؤنا للغاصبينا؟

بنى التَّاميز كونوا كيف شئتم ... فلنْ ندع الكفاح ولنْ نلينا

خذوا أنْصَاركم إنا نراهم ... لنا ولقومنا الداء الدَّفينا

هم الأعداء لسنا من ذويهم ... وليسوا فى الشدائد مِنْ ذوينا

ذممنا عهدكم فمتى نراكم ... تشُدّون الرِّحال مودّعينا؟

زعمتم أن موعدكم قريبٌ ... كَذَبْتُم أمةً تُحصى السِّنينا[٢]

فى هذه القصيدة تصوير لوحشية الإنجليز واستخفافهم بالقيم وحقوق الإنسان فهم يتغنون بعويل اليتامى وأنّات الجرحى والأيامى ويطربون للمشانق والسياط على جلود الأبرياء... ويسخر الشاعر من قضاتهم ومن ادعائهم للعدل والإصلاح... ثم يجاهر بالكفاح حتى يجلو الاستعمار عن البلاد إلى غير رجعة ومن حقنا أن نشيد بموقفه فى تلك الآونة حيث كانت تلك الصيحة الوطنية الحادة جديدة على أوتار الشعراء فى تلك الآونة. وهذه قصيدته الثانية التى نشرتها مجلة المجلات[٣].

أهذا هو العدل الذى فيه أَطنبوا ... وراح به منهمُ فخورٌ ومُعْجَبُ

أعدلاً يرون القتل لم يأتهم به ... كتابٌ سوى ما الظلم يُوحى ويَكتبُ

وللظلم آيات إذا هى صافحتْ ... يَدَى قادرٍ ظلت على العدل تضرب!

أخذتم بنفس أربعًا ونسيتمُ ... دمًا بات يبكيه التُّرابُ المخضَّب

هنالك حيثُ الجند لا تتقى الأذى ... ولاترقب العين التى ترقبُ

وما نقِمت إلا الجَنانَ أثاره ... صريعٌ تردَّى وهو حرَّانُ متعب

فأين ثواب المحسنين؟ وقلّما ... يُثيبُ على الإحسان إلا الُمهذَّبُ

* * *

أفى أمة السَّكْسُونِ للعَتْب سامعٌ ... فينْفعُ أم لانفْعَ فى اللَّوم يُطلبُ

أرادوا بنا ما لانريد وفارقوا ... من الشَّر ما نأبى وما نتجنَّبُ

فكيف يوافيهم جفاءٌ ونفرةٌ ... وهل ساد إلا ذو الذِّمام الُمحَبَّبُ

وهل زعموا مصرَ استقلَّت وسعيُها؟ ... بهمْ فهى مثوى آخرِ الدَّهر طيِّبُ؟

وما مصرُ إلا أهلها وقُلُوبُهُم ... تضيق على حكم الزمان وترْحَب

ودون الرضى لو يعلمون قوارعُ ... من البَغْىٌ تؤذى كُلَّ قلب وتُغضِبُ

أَتَنْسى نفوسًا أزهقوها تشفيًا ... وأخْرى غدتْ فى دُنشواىَ تُعَذَّبُ؟

أَتَنْسى اليتامى والأرامل أصبحتْ ... تُعانى حياةً دونها الموتُ يعذُبُ

نفوسٌ تمنَّى لو يساورها الرَّدى ... فتمضى على آثار تلك وتذهب

فيالك من نجوى يهول سماعُها ... فتبكى لها الأجرام شجوًا وتندُبُ

إذا ما تلقَّتها الملائك أشفقت ... وراحت لها غضبى تضجُّ وتصْخَبُ

يكاد يهزُّ العرش رجعُ ضجيجها فــيــوشِكُ لولا رَبُّهُ يتــذبذبُ

فيامصرُ ماذا جرَّ أهلُك فاغتدَوا وليس لهم عن موطن الخسفِ مَهْرَبُ

أقام عليهم مضربَ الذُّل غاشمٌ ينازعهم عِزَّ الحياة ويغصِب

إذا لَّج بالشكوى إليه سوادُهم تَمَرَّد لايُرثى ولايتحدَّبُ

وراح كما راح العشية نازعٌ عن الخمر يلهو بالعقول ويلعبُ

وإلا كما استهوت أخا الغىِّ قينةٌ تُصيبُ هوىً دخيلاً فيطْرَبُ

وهمْ زعموا أنَّ البلاد بمأمن من الظلم يغشى والعماية تَرْكَبُ

وأنَّ سياط التُّرك لولا صنيعُهم لما بَرِحت تفرى الجلودَ وتُلهب

فما بال أجسام عنتْها سياطُهم فظلَّت تُفرِّى عن دم يتصبَّبُ

وهل نُصِّبتْ فى دولةِ التُّرك آلَةٌ يشدُّ عليها من أرادوا ويُصَلَّبُ

وهل يتساوى ذو انتقام وزاجرٌ عن الغَىِّ يهدى قومَه ويُؤدِّبُ

سلامٌ على ما مرَّ من طيب عهْدهمْ ولا كان دهرتصاريفَ قُلَّب

ونشرت جريدة «الأخبار» هذه القصيدة: (٤)

عميد الغاصبين نزلْت أرضًا يبيدُ الغاصِبون ولاتبيدُ

يزود الواحد القهار عنها إذا قهرتْ جُنودُكَ من يذود

أتذكر إذْ لِقومِك ما أرادوا وإذ (لكرومَرَ) البطشُ الشّديد

تطوف جنوده فتصيدُ منّا ومن سرب الحمَائم ما تصيد

ولو ظفرتْ بأجنحةِ لأمستْ لها بين النّسور مدىً بعيدُ

يَدير بها على القوم المنايا قضاءٌ يستبدُّ به الَحقُود

إلى أن يقول:

ونحن المقبلون على المنايا ... إذا الأبطالُ كان لهمْ صُدود
نَضِنُّ بمصرَ إن عَدَتْ العوادى ... ولكنَّا بأنفسنا نجودُ

ويخرجُ «أحمد محرم» يومًا من دمنهور ذاهبًا إلى الإسكندرية فيمر بدنشواى فيقولُ قصيدةً بعنوان: «رحلة عابسة» جاء فيها: (٥)

ولقد مررتُ (بدنشواىَ) فهاجنى ... وجْدٌ على مرِّ الحوادث باقِ
تلك السِّياطُ على الجلودِ وهذه ... سُود الحبال تُشَدُّ فى الأعناقِ
أرى دموعَ الثّكلاتِ هوامِيا ... تجرى فتغرق فى الدم المُهْراقِ
يرمى النفوس وما بها من قسوةٍ ... تَزَعُ الرُّماةَ ومالها من راق
عرفَ (الحمام) مُصابها فكأنما ... لبس الأسى فى هذه الأطواقِ
لولا الأُلى حملوا السلاح لصيده ... لم يَسْقِها الموتَ المُسمَّمِ ساقِ

هكذا يمر الشاعر بدنشواى بعد أكثر من ثلاثين سنة ـ مرت على المأساة ـ فتهيج أحزانه، وتعود به الذاكرة إلى تلك الأيام السود التى عاشت فيها القرية. وتبدو لعينيه تلك السياط التى جُلد بها الفلاحون الأبرياء والحبال السود التى شنقوا بها، ودموع الثاكلات تسقط غزيرةً فتختلطُ بالدِّماء، وتغرق فيها، ويخيل إليه أن حمام تلك القرية إنما لَبس فى أطواقه السواد لما أصاب أهله، وقريته..!!

أحمد الكاشف (**)

للكاشف فى هذا المضمار قصيدتان أما الأولى فهى طويلة بعنوان (وداع واستقبال كرومر وغورست) منها هذه الأبيات:(٦)

وختمت عهدك بالذى اهتزَّتْ له ... أركانُ مكةَ واستعاذت يثربُ
وتنفس الصعداءَ شعبٌ حاملٌ ... همًا يضيقُ به الفضاءُ الأرحبُ
قلنا وقُلتَ فأينا المتنكر الـ ... ـمتندرُ المُتحيِّرُ المتعصِّب

مـاذا كـسـبتَ وأنتَ عنا راحلٌ إلا الجـفـاءَ وبئس هـذا المكسب
إن كـان ذنبًا بُعـدنا عن مظهـر يوم الـوداع فليس منـا ا لمذنب
هل كنت تزعُم أن أمـرك خـالدٌ فى أهل مصرَ خلودَ مِصرَ وتَحسب
وتهـين دينهم وتُنكر عـرشـهُم ولواءَهـم وتريد أن لايغـضـبـوا
وتسُبُّهم أيام لبُثك فـيـهمُ وتودُّ بعـد العـزل أنْ يتـأدّبوا

إلى أن يقول: مستقبلاً «غورست»

أهلا وسـهـلاً بالجـديد وليـتنا كـالناس نفرح بالجديد ونطْرَبُ
عـاشـرتنا زمنًا وديعًا طيـبًا فـارجع كـمـا أنت الوديع الطيب
لولاَ مـخـافـةَ أن تقـول شـمـاتةً بالمستـقـبل سـعـى إليك الموكب
هل تقـتـفى أثر القـديم تماديًا؟ أم أنت مـأمـورٌ بما نسـتـوجب
كن بيننا كسـواكَ ضـيفًا راضـيًا تصـفـوا لنا وله الحـيـاةُ وتعـذُب
لايخـدعنك فـاتنٌ مُتـملق غـصّانٌ بالخـيـر الشّنيع مُذَبْذَبُ
فالشرق مهما اشتّد عزمك مَشْرِقٌ والغربُ مهما امتّد حزمُك مغْرب

تعليق

فى جرأة وصـراحـة يودّع الكاشف (اللورد كرومر) مذكـرًا له بأفدح ذكـرى قـد خـتم بهـا عـهـده بمصـر، وتأكـد له أن مـا خـتم به عـهـده أمـرٌ استوجب أن تستعيذ منه البلاد وأن تَتَنفس بعده الصعداء بعد أن ضاق الشعب زرعًا بإقامته، وأخذ يعاتبه على الجفاء والقسوة والجبروت، لقد ظن «كـرومـر» أن عـرشـه خـالد وأن حـاله لايتـبـدد ولكن بماذا قـدم هو لمصر!! ثم يدير الشاعر وجهه ليستقبل الحاكم الجديد فى أسىً ويتعذر عن إقامة المواكب احتفاءً بمقدمه (خوف أن يُقال شماتةً بالمستقبل) وفى جرأة يسأله هل تقتفى أثر القديم؟ وكأنه يحذره من سوء المصير ولايكتفى بهذا بل يطلب منه أن يقيم ضيفًا راضيًا فلا يخدع بمنافق

متملّق والحق أنه: فالشرق مهما اشتد عزمك مشرقٌ.. والغرب مهما اشتد حزمك مغربٌ وهذه قصيدته الثانية ومنها هذه الأبيات: (٧)

قالوا: التعصب لايُغادر مسلمًا	حتى يبيبت على الخنا مجبُولا
ياليتنا مُتَعصّبون فنفتدى	بنفوسنا هذه الحمى المثكولا
إن أكبروا القرآن فالأَولى لهم	أن يتبعوه ويتركوا الإنجيلا
لم يبرحوا يأتون كل عجيبة	حتى غدا قابيلنا هابيلا
ما بالُ وهَّاب الأمانى ـ كما ادعى	ـ أمسى يرى فى كل فَجٍّ غُولا
وإذا أزاغ اللّه باصرةَ امرئٍ	ليخيفه ظنَّ الذبابة فيلا
لولا اتكال البائسين على غدٍ	ودُّوا الرجوعَ إلى الليالى الأولى
لم يعذُروا الحكم الُمجرّبَ ظالمًا	ولطالما عذروا الظلوم جهولا

هكذا عرض الكاشف لتهمة التعصب الدينى التى ألصقها المستعمر بالمصريين فأنكرها وتمنى لو كنا متعصبين فأخذنا بثأر ذلك الوطن الجريح الذى فقد أبناءه... وإذا كان الثأر فى دين اللّه ﴿النفس بالنفس﴾ فالأولى بهم أن يتبعوه وأن يتخذوه قدوةً تشير إلى العفو والتسامح وتنفر من الحمق والتعصب والتباغض فما كان ثأر قتيلهم (ذا الفتك والتعذيب والتمثيلا).. إلخ.

ثم يسخر من اللورد الراحل الذى كان يعد ويوعد ويمّنى ويدعى ملكا ويعطى لمن لايستحق... إن الأمور كلها بيد اللّه سبحانه فإذا أراد أن يُضل عبدا أعمى بصيرته فأصبح يرى أبواب الأمانى مصادر خوفٍ ويدعو المقام شاعرنا فيذكرنا بأول مأساة على الأرض بين ولدى آدمً عليه السلام... ثم يعود للبائسين المنكوبين فهم يعيشون على بصيص من الأمل ولولاه لما تمنوا الحياة وهم يتعلقون بأشباح خيال وأذيال أمنيات تكاد تكون مستحيلات...

* * *

وصدق الشاعر واضحٌ فضلاً عن جرأته وصراحته التى يقول عنها المنفلوطى:[8] «فنصيحتى إلى مؤرخى القرون الآتية إن أرادوا أن يأخذوا تاريخ أدب هذه الأمة من ديوان شاعرنا ألاّ يحفُلوا فى سبيل ذلك بشعر غير شعر الكاشف؛ فهو الشاعر الوحيد الذى عرفتُ وعرف الناسُ من أمره أنه إذا نطق ينطق بلغة نفسه وإذا حدّث فإنما يُحدث عن حسه»

إسماعيل صبرى باشا

لاحظت أن شاعرنا يشترك فى اسمه ولقبه مع واحد من شعراء عصره وهو (إسماعيل صبرى أبو أميمة) ويفرق بينهما الأستاذ/ عامر محمد بحيرى «مدير إدارة أحياء التراث بوزارة الثقافة» فيُطلق على الأول إسماعيل صبرى الكبير والثانى الصغير كما يذكر عقب الثانى أبو أميمة [9]

- ١ -

انتهز الشاعر فرصة حلول الأضحى فيرسل فى يناير سنة ١٩٠٨م تهنئةً بالعيد إلى سمو الخديوى عباس الثانى وفيها يذكره بحادثة دنشواى ثم يشكره على العفو عن مسجونيها يقول: [10]

وأقلت عثرة قريةٍ حكم الهوى ... فى أهلها وقضى قضاءً أخرق [11]
إن أنَّ فيها بائس مما به ... وأرن جاوبه هناك مطوق
وارحمتاه لجناتهم ماذا جنوا؟ ... وقُضاتُهم ما عاقهم أن يتقوا؟
ما زال يقذى كل عين ما رأوا ... فيها ويؤذى كل سمع ما لقوا
حتى حكمت فجاء حُكّمك آية ... للناس طىَّ صحيفةٍ يتألقُ [12]
نزلت ترفرف حول كاتب نصها ... زمرًا ملائكة الرضا وتُحلق

نزلت ترفرف حول كاتب نصها زمرًا ملائكة الرضا وتُحلّق
شكرتك مصر على سلام بعضها شكرا يغرّبٌ فى الورى ويشرّقُ
ذكرت لك الصفح لجميل ولم تزل ترمى إلى أمر أجلّ وترمق[١٣]
قانون (دنشاواى) ذاك صحيفة تُتلى فترتاع القلوب وتخفق
هل يُرتجى صفوٌ ويهدأ خاطرٌ والموت حول نصوصها يترقرق
ومضاجع القوم النيام أواهلٌ بمعذَّب يُروى وآخرُ يُرهق
لن تبلغ الجرحى شفاءً كاملاً ما دام جارحها المُهنّد يبرق[١٤]
فاحكم بغير العنف واكسر سيفه فالحلم أجمل والمكارم أليق
لكَ مصرُ ماضيها وحاضرُها معًا ولك الغدُ المحتّم المتحقق
والأمر أمرك لايشاب بريبةٍ والحكم حكمك والإله مصدق

فى حرارة الغيور على بلاده وشجاعة الزائد عن حياضه يعرض الشاعر لذلك الظلم الفادح الذى دهم دنشواى فأضحت على تلك الصورة البشعة وبذلك المنظر المقظى للعين والموجع للقلب والجوارح: لهذا يترجم على جنات المأساة ويتساءل: ما منع القضاة من أن يتقوا فيحجموا إرضاء واحتسابا لوجه الله؟.. وقد رضى الشاعر واستراح للعفو عن المسجونين فنظر فى بهجة لتلك الصحيفة التى صدر فيها العفو وكأنها سراج منير، ولكن لم يكتف من الخديو بالعفو عن المسجونين وفقط وإنما يطالبه إلغاء القانون الذى حوكم بمقتضاه أهالى دنشواى وهو يتطلع لما هو أسمى وهو الاستقلال والشاعر يمزج الطلب بالثناء على الخديو حتى يهيىء نفسه وحب الثناء طبيعة الإنسان.

العقاد (١٨٨٩ - ١٩٦٤)

نشرت جريدة اللواء له هذه القصيدة:[١٤]

هلموا نزيل الدمع نثرًا وننظم ... فإن دموع العين للقلب مرْهَمُ [١٦]

وجمنا لذكرى دنشواى وأنها ... لهمٌّ بأحشاء البلاد مُسممٌ[١٧]

أهابوا بها جلدًا وسجنًا مؤبدًا ... وصلبًا فأدموا واستذلوا ويتَّموا

وراح عميد القوم فى مصر ناقمًا ... فياويح شيخ فانى العمر ينقمُ

فيالك من ذكرى إذا ما تردّدت ... فكل فؤادٍ بالرزئية مُفعَمُ

ويالك من يوم سيذكر هوله ... يتيمٌ وموتُرٌ وثكلى وأيِّم

* * *

رأينا الليالى حاملاتٍ فلم نزل ... نراقب منها ما رواه المُنَجِّمُ

فلم تمض إلا أشهر الحمل عندما ... رأيناك مغضوض البنانة تندَمُ

* * *

نصبْتَ لنا ذاك المقطَّم داعيًا ... فهل عاد إلا بالخسار المُقَطَّمُ؟

وهِمتَ فما مصر عقلٌ مدُلَّةٌ ... يصيح لما يوهى الدخيلَ ويُوهم؟

زعانف لايرعون للّه ذمةً ... لئامٌ إذا ما حدّث الدّهر ترجموا

وأصليتنا جمر القطيعة والأذى ... كأنَّك فينا بالقطيعة مغْرم

وجاءَ فتى التاميز فانساب بيننا ... كما انساب ما بين الخمائل أرقمُ

وقال سَنُحْيِى العدل فالعدل ميتٌ ... ونوقِظُ جَفَن القومِ فالقوم نُوَّم

يسيغ لها من زهر عرقوبَ موعدًا ... هو الشهد إلا أن عقباه علقم

وباتت بأيدى الإنكليز لفيفةً ... تُقبِّلُ من هذا ومن ذاك تُضْرَمُ [١٨]

يحبون منها أن تذوب من الجوى ... ويأبون منها أنها تتكَلَّمُ

أراهم أبانوا رأسها فتعجبوا ... من الجسم تنبو رأسُه كيف يألمُ

ولم يذكروا عرقًا من المجد طُولَه ... ثمانوَن جيلاً لايجِّفُ له دمُ

فالعقاد ينادى الجرحى ليجتمعوا فيجعلوا من دموعهم مقالات حارة، يصوغوها قريضًا مُقفى... فهى أدعى لتضميد جراحهم، ويعلل لكلامه بما يشبه الحكمة «فإن دموع العين للقلب مرهم».... ويذكر العقاد ذلك اليوم الذى جمع بين المصابين (الموتور واليتيم والثكلى واللطيم)، ويظل العقاد بأسلوبه المعهود بالجزالة إلى أن يصل لجريدة المقطم (عين النفاق) متسائلاً متهكمًا: وهل يجنى داعى النفاق غير الخسار والبوار...؟ ويظل فى تهكمه فيعجب من أُناس يقطعون الرأس ويأبون على الجسم أن يتكلم ونسوا أن له: عرقا من المجد طوله... ثمانون جيلاً لايجف له دم

حسين محمد الجمل* * *

أخلق بتصريف الزمان مُبيدا	وبحسن تجريب الشئون مفيدا[19]
ولرُبّ نازلة أناخت بامرئ	مَرُّ الدهور يزيدها تجديدا
تمضى أعاجيبُ الحوادث خِلْسةً	وتُقيم فى آثارهن خُلودا
هذى مصيبةُ (دنشواى) وإن مضت	أبقت لنا حبل الأسى ممدودا
(صيدَ الحمام) رزأت قومًا غُفَّلا	فمضى وليد سُعودهم موءودا
وهناك آلات العذاب تهيأتْ	من قبلُ تبكيتًا لهم ووعيدا[20]
قد مثّلت فيها السياسة دورها	فى موقفٍ يذرُ الحياة صَمُودا
وبمصر ألصقت التّعصُّب تهمةً	تستبطن الترويع والتهديد
فأثار أهل الحول فيها محنةً	ملأت رباها عدةً وعَدِيدا
مهلاً بنى (التاميز) إنا مثلكم	لسنا وإن طال السكوتُ عبيدا
إن ابن مصرَ وإن تخاذلَ حظُّه	مثلُ ابنِ (لندنَ) قيمةً ووجودا

لِمَ تتـركـون قـتـيلَنا وغـيـالَه ... يبكون من هول المصاب شـديدا .
لا فـاعـلا أظهـرتُم مع قـريـه ... منكمْ ولا التـحقيقُ كـان سديدا
وقـتيلكم قـامت له الدنيا وقـد ... عَلِم الخـلائق يومَه المشـهـودا
عشرون من جَرّائه قد أصبحوا الـ ... ـمشنوق والمسـجـون والمجلودا
فى صـورةٍ وحشيـةٍ لم نسـتـمع ... فى عـادٍ الأولى بهـا وثمـودا
تتـفطر السـبع الطبـاق لهـولها ... وتَخِر راسـيـةُ الجـبـال هُمُودا
حـيث الوليـد يرى أباه مـجندلا ... والبنت تندُبُ حظهـا المنكودا
والزوجُ تَذهلُ حين يهوى زوجها ... صَعَقًا يُردِّد نفـسَه ترديدا
حكَّمتمُ الشـبهات وهْى ضعيفةٌ ... وجعلتمُ القومَ الخصوم شُهُودا
وأخـذتم البُرآءَ فى مَنْ أذنبـوا ... وبلغتمُ فى القسـوةِ المجهـودا
وصريعكم فتكتْ به الشمس التى ... تركت به زرعَ الحيـاةِ حـصيدا
وصـريعُنا أرداه طعنُ جُنودكم ... والحق مـعَه قـد غـدا ملْحـودا
إن لم يَرُقْ لكُمْ فـعـالُ جـمـيلهِ ... فـاسْتـرجعوا مـعروفَه المجْحـودا
وأسَى جـريحكمُ يريد حـيـاتَه ... فـعـدمتـموه عن الحياةِ بعيدا
وقطعتـمـوا أنيـاطَ صـدْرٍ لين ... من عطفِه ومـلأتموه حـديدا
مـا كـان أقْسـاكمْ وأرحَمـهُ بكمْ ... إذ رام إسـعـافًا فـراح فـقـيدا
يا دنشـوايُ دهاكِ شـرُّ مصيبةٍ ... كـبـرى أشـابت والدًا وَوَليـدا
للكِ سجِّل التـاريخ فى صفحاته ... أسْطـار ذل بـالمظـالـم سُودا
فليـعلمَنَّ المصلحـونَ بأنهم ... تركـوا فـؤادَ رجـائِهم مـفئـودا
وليـذهَبنَّ شـهيدُ وقْعة (سَرْسِنَا) ... لـلّه يَنْشُد جدَّه المسـعُودا!
يا قائمين بدولة العدل ارحـموا ... قومًا بهم صار الَجهولُ رشيدا
عطفًا على البؤساء عطفنا إنهم ... جعلوا الرجـاء بعفـوكم معقـودا

وتفـضَّلوا بـالمنـة العظمى فـقـد أكل الشـقـاءُ لحـومَهم وجُلُودا
فلقـد يروضُ اللينُ أخلاقَ الفتى من حيث تأبى العسفَ والتشديدا

* * *

هم قدْ أرادوا الدفع بالحسنى فلمْ يُقـدّر لهم أن يُحسِنوا المقصـودا
فـتـعـثـروا فـيمـا جَنَوه وعـالجـوا من أجله التنكيلَ والتنكيـدا
فـتـملكوا منهم قـيـادَ قلوبهم بـالصَّفح يزدادوا لكمْ تمجـيـدا
وسيكفل التاريخ حسنَ صنيعِكمْ ولـرفـعـة الذكـرى تخليـدا

تـعـليـق: يبدأ «الجمل» أبياته بالحديث عن تقلبات الزمان وأهوال القدر، وأشعر أن الرجل ممن خبر الحياة فعلم أن الله أراد لها أن تقوم على الصراع بين الحق والباطل ولكل منهما دعاته ودواعيه.. ثم يعرض لدنشواى فيذكر أن مصيبتها فاقت كل مصيبة وأن صيد الحمام رزء القوم سوءًا على غفلة، وكان سببًا فى شقائهم وعذابهم... إلخ.

ثم يخاطب السياسة البريطانية التى لعبت دورًا كبيرًا هو كفيل بأن يدع الحياة هامدةً جامدةً... كما يعرض لتهمة التعصب على أنها تلفيقٌ يستبطن الترويع والجفاء ثم يذكرهم بأننا أحرار وإن طال سُكوتنا وأننا أمثالكم من بنى الإنسان فلِمَ تهملون حق قتيلنا أمام القضاء وتقيمون لقتيلكم القيامة، إنها الأهوال التى انفطرت لهذا السبعُ الطباق وخرت لها الجبال الراسيات، هكذا يعدد الأهوال وينسب لقضائهم ظلمه...

محمد إمام العبد(٢١)

نشرت له اللواء فى هذا المضمار قصيدة يقول فيها:(٢٢)

ناح الحمامُ كما ناح ابنُ محفوظ فـأثّر الدّمعُ فى صُم الجـلاميـد
مـالى أُكتِّم حـزنى بعدما نطقتْ ورقـاءُ مـا خُلقَتْ إلا لتـغـريدِ

خــذوا من الجــفن دمــعًا ضل مُرسِلهُ ... وساجِلوا السُّحْبَ فى الأمصار والبيدِ
من لى بأيام نيـرونَ وشـيـعـتـه ... ليــقــتــدى بسُليــمــاَن بنَ دواد
جـائت علينا أناسٌ لا عـهـودَ لهم ... فأضمروا الظلم فى طىِّ المواعيد
قــــومٌ يودون منَّا أن نودَّهمــــوا ... ومن يُقـابل مـوجـودًا بمفـقـود؟
فــالماء كــالآل لا يَروِّى بمنظره ... والسيف يسَّطع كى يمضى إلى الجيد
كـيف السـبـيلُ إلى قـبـر أقـبِّله ... فى دنشـواىَ يقلب غـيـر مـفـئـود
يكاد يبكى على أرواح من شُنقِوا ... كـمـا يودُّ عـمـيـدا غـيـر مـودود
مـالت عليـهم بناتُ الدَّهر فى زمنٍ ... كالقفر يجمع بين الليث والسِّيد
طـارت قلوب بنى مـصـرَ لحــادثةٍ ... مرّت كـمـا مـرّغيمٌ غيـرُ معـهـود
فكادت الأرضُ تنبـو عن جـوانبـهـا ... وكـادت الشـمـس لا تبـدو لموجـود
وقـفتَ تضـحـك والأيامُ عــابسَة ... والناس مـا بين مشنوق ومـجلود
ورحت تخطر بين البـاكـيـات كـمـا ... خَطَرت فى الحـرب بين البيض والسُّود
كـتبتَ بالسَّوط ألفـاظًا على جُثَثٍ ... طرَحتـهـا تحت مـحلولٍ ومعـقـود
طربتَ فى مـوقف بالناس مـتـقـد ... وتِهتَ فى مـوطنٍ للموت مرصُود
حـسبتَ أصـواتهمْ ترديدَ سـاجعـةٍ ... وشـمـتَ أدْمُعـهم مـاءَ العناقـيـد
لاتظلمـوا أمـةً دار الزمـانُ بهـا ... فـأصبـحت بين عُبَّاد ومـعـبـود
فالغـرب كادَ لهـا والشرق أهمَلَهَا ... والمرءُ كـالعـودِ إنْ أغلفتـه يوُدِى

وقال رحمه الله (بعد العفو عن مسجونى دنشواى): (٢٣)

عــبــاسُ يا خــيــر مليكٍ مَلَكَ ... الذنب للأيام والعــفــوُ لك
ملكتَ بالعــدل نفــوسَ الورى ... يا مــالك الأرواح مــا أعدَلَك
أنطقَتنى بالشــعــر فى ليلة ... كَمَّلهــــا بالحُسن مَنْ كَمَّلك
فــهــذه الأزهار نبت الثــرى ... وهـذه الأنـوار بـنـت الـفـلـك

قـــالوا مليك: قلت لا والذى   أيّدَ عـــرش الُملك هذا مَلك
فـضلَّك الرَّحـمنُ عن خلقـهِ   فـبتَّ كـالظّل لمن فـضّلك

تعليق:

تتراءى صورة الحمام - التى خُلقت رمزًا للسلام - باكية نائحة تتشاطر وتؤاسى «ابن محفوظ» وهوأول من حكمت عليه المحكمة المخصوصة بالشنق... إنها لفتة كريمة من الشاعر - الأمر الذى جذب الدمع منهلاً يؤثر فى الصخر. والشاعر يستفهم فى إنكار (كيف أكتم حزنى وقد نطق به الحمام الذى لم يخلق لذلك)؟ ورأى الشاعر كثرة الدموع فنادى الناس أن يصنعوا منه صنيع السحب فى الأمصار والصحارى.... ثم ينتزع الشاعر من الأزمان صورة سليمان عليه السلام الذى مَلَكَ من القوة ما سخَّر به الجن ولكنه استعملها فى الإصلاح والتعمير والتقرب إلى ملك ملوك سبحانه... أما نيرون: الذى لم يبلغ قوة سليمان قد استغل قوته فى العبث والكفران والشاعر إنما يقصد بهذه الموازنة اللورد كرومر الطاغية الذى قلد «نيرون» فسبق... ويعود لأخلاق المستعمر وما أَلفِه من اللؤم والخداع فهو لا عهد له يخفى الكيد فى طى المواعيد، ويؤكد المعنى بذلك التشبيه الجميل (فالماء له بريق ولمعان) ولكنه لا يجدى ولايفيد لهفة الظمآن (والسيف لا يجدى فقط ببريقه ولمعانه) ليفتك بالجيد، وهذا تنويه وتلميح بخلق الاستعمار...

وإن الذى أصاب أهل دنشواى يحتاج قلبًا حاضرًا يود قلوب الثكالى، ويؤاسى الجرحى. وإن كرومر لا يعبأ بالمصابين من حوله فطالما ضحك فى يوم عَبّوس وطالما تكبر ومشى تيهًا والناس من حوله يراهم

صَغارًا،وظل الشاعر هكذا إلى أن ينادى جماعة الاستعمار طالبًا أن يكفوا عن الظلم فللظلم نهاية مظلمةٌ، وأمة العرب أصبحت على وشك الضياع والانهيار فقد دار بها الزمان وكاد لها العدو فى كل مكان ثم يختم بهذه الحكمة « المرء كالعود إن أغفلته يودى» ليؤكد بالحكمة قوله وليكون أدعى لحفظ كلامه.

عبد الحميد إسماعيل * * * * *

تذكَّرَ بلْوى فــاجع كــان مــؤلما ... فـمـالَ على جنب الأسى وتألَّمــا

برئ قضى فى السجنَ عامًا ولم يجد ... له أىَّ ذنب يســتَــحق التندُّمــا

تذكَّر شـهـرًا مـرَّ بالهـول والقَضَا ... وعـاد مع الأيام مكتـسـيًا دمـا

ويومـا من التنفـيذ أغبـر حالكا ... به كان أمر اليأس أمرًا محتما

ومرت به الذكرى على الحادث الذى ... أناخ على تلك البـــلاد وخَيَّمـــا

وأزهـق أنفُسًا وأرهـق أنفـــسًا ... ومـــزَّق أكـــبـادًا وهشَّم أعظُمـا

وأزعج أقـــوامـــاً وآلم أمـــة ... وأسكت منِطيقـا وأعْيَا وأفـحـما

وضـجتْ قلوبُ القـوم طُرًا لهولِه ... ضَجيجًا كمَا ضجَّتْ ملائكة السَّما

وجـرَّ على المصـرىّ داهيـةَ الرَّدى ... فـــألبــســه والأرض ثوبًا مُعندمًا

فَسَال من المسجون فى السجن دمعةٌ ... وراح إلى إحـــدى زواياه وارْتمى

رمتنا سياسات العميد الذى مضى ... بســهم فلم يحـسُن به الرمىُ إذ رمى

وقـد كـان سـهـمًا واحـدًا غيـر أنَّه ... لقد جرَّ من قوس المصائب أسهُما

فـمـا صـادفتْ إنجلتـرا عند وقْعه ... من الشعب إلا الصدَّ والكُرهَ مَغْنَمًا

فـفى أى شـرع حلَّ إهلاكُ أنفس ... وصـار دفـاعُ الراحـمـين مُحَرَّمـا؟

ظننتم بنا أنَّا رِجـــالُ تعـــصُّبٌ ... فهل هزَّ أربابُ التعصُّب صارما؟

وقلتم بأنَّا فى انحطاطٍ وغـفلةٍ ... فـهل مـثلُنا لا يسـتحق التـقدُّمـا

وسيطرتُم دهرًا علينا اقتدارُكم وأكثرتُم فينا الأذى والتحكُّما
فلم نر أو نسمع بصيدٍ وصائدٍ يصيد نفوسًا (قبلهم) وحمائما
وإن لم يكن للقوم يومًا مأتما فقد وجدوا فى ساحة الحق مأتما
فقل لأولى الأحكام بعدَ قُضَاتِهم أعدتم إلى عصر السلام مَظَالما
فيا مالكًا فى مصرَ نحن عبيدهُ وإنَّ له فينا مقامًا مكرّما
نرى البحر يجرى من أناملك التى تفيض علينا من سَخائك أنعُما
وعفوُك يمحو ذنبَ أكبر مذنب ويصفحُ عن فعلِ الجناة تكَرُّما
وهذامحل العفو فاعفُ عن الأُلى لقد عرفوا فيك المليك المعَظَّما
ولاتنتظر منهم صُياح استغاثةٍ فقد أُلجمت لَجْم السجون لهم فمًا
تَسَاوى لديهم ليلهُم ونهارُهم فصار ضياءُ الصُّبح كالليل أقتما
وإن كان لونُ الصبح والليل مُظلمًا فقد صار لونُ الحظ والسُّجنَ أظلما
فما ظلماتٌ بعضُها فوق بَعضِها بأعجبَ من صبر السجين وأعظَما

* * *

أمولاى إنْ يحلُ انتقامُ حاكم فقد كان أمرُ العفو أحلى وأكرما
ومن يعفُ أو يُصلحْ فأمرٌّ مخلدٌ ومن يفعلِ المعروفَ لن يتندما
لعلَّ ولى العهد يشفعُ فيهمُ فيرفعُ عنهمُ كربةً ومظلَما
فما لهم ذنبٌ وما ذنبُ سادةٍ يذودون عن حوضٍ لهم كان مُكَرَّما
فإن شئت كان السجن قبرَ حياتهم وإن شئتَ ألفَوا فى الحياة التنعُّما
فانقذ بفضل العفو يابن محمد نفوسًا ترى دورَ السجون جهنَّما
فتوهبُك الدنيا ثناءً مُخَلَّدا وتنظِمُ فى علياك عِقْدًا مُنظَّما
ويبسُم وجهُ القُطر بعد عُبوسه وتذكرك الأيامُ بالحمد دائمًا

* * *

تعليق:

بدأ الشاعر بسرد ذكريات الظلم وحلقات الكبرياء والتعسف فهذا بريء قضى عامًا كاملاً فى السجن دون أن يقف على ذنب قدَّمه، وهذه الأيام التى وقع فيها الحكم الأخرق وجال فيها الحاكم المستبد فكانت النتيجة المذرية التى طبعت فى النفوس مرارة الألم إلى أن جاء يوم تنفيذ الأحكام فترملت النساء وأُزهقت الأرواح وسُفكت الدماء وعلا الصُراخ أجواء الفضاء وضجت ملائكة الرحمة ضارعة إلى اللّه بالدعاء أن يدفع شر الظالمين... وهكذا تأهّب الناس للحِداد واحتضن السجين زوايا السجن وعيناه تذرف الدمع، ثم يعرض الشاعر لسياسة العدو فيذكر أنها سببُ البلايا ومفتاح المصائب وهو يسأل فى تهكم وسخرية فى أىِّ الشرائع يحلُّ إزهاق الروح التى حرم اللّه إلا بالحق؟ وفى أيها حُرِّمت شفاعة الراحمين؟ كما عرض لتهمة التعصب فأنكرها ونلاحظ أن فكرة التعصب قد تناولها معظم الشعراء، وهذا ما يؤكد صداها فى نفوسهم الذى رافق المأساة...

ثم يخاطب (اللورد) متهكمًا فيوهمه بأنه صاحبُ النعمة على البلاد كما أنَّ باعه فى العفو طويل؛ ولذا يسأله العفو عن المسجونين، ولكى يستدر عفوه عنهم راح يصف له حالتهم المؤلمة فذكر أن المسجونين قد ألجمت أفواههم فلا يستطيعون استغاثةً ولاتسمع منهم صياحًا، وهم لايرون نورًا فقد تساوى نهارُهم بالليل وأصبحوا لايرون إلا الظلام القتام ليلَ نهار...!!!! وهو يكرر طلب العفو ويعده بتخليد اسمه وتمجيد فعله على صفحاتنا الأدبية وفى سجلاتنا العربية ونلاحظ أن الشاعر كان هادئا مداهنًا حذرًا إلى درجة كبيرة.

ذكرى دنشواى

للشاعر إبراهيم الدبّاغ* * * * * *

أراك على الزّرية هِجْتَ ذِكْرى فضقتَ تأسّيًا وقضيتَ فكرا(٢٤)

وعند الطارقات وقد ألِمتَ تُعاروك الأسى ففقدت صبرا

وكان الدمعُ فى عينيك ماءً فعاد الدّمعُ فى خدّيك جَمرا

لعلّ لدنشواىَ عليكَ دينًا فرُمتَ وفاءَه نظمًا ونثرا

مررتُ بها فأعولَ ساكنوها وقالوا: ويل أُمّكَ لستَ حُرا

ألَمْ يصدعْ فؤادَك ما لقينا فتنظِمُ منه للتاريخ شعرا؟

أذلتنا الخطوب وكم نظرنا إلى الأيام والأرزاءُ شزرا

رسفنا فى قيود السجن حولاً فضاق لأجلنا السّجانُ صدرا

نسينا سيرةَ الشُّهداء حينًا فأحيا عندها (يارنجُ) ذكرى

وقال: ألست مولاكمْ جميعًا أسوس بلادكمْ نهيًا وأمرا؟

فأحييها إذ ما شئت رفقًا واقْتلها إذا ما شئت حُرا

وردنا النّيل يوم زَهِدتموه فكان لقومنا نسبًا وصهرا

لقد عادتْ حمائمكم عليكو حمَامًا والغديرُ العذبُ غدْرا

لكم طيرانُها ولنا شِواها إذا ما غالب الحِجلانُ نِسرا!

جهلتم موضع القواتِ فينا وقد دارت بكم برًا وبحرا

أيُقتل واحدٌ منا بأرض تُباع برغْم أهليها وتُشْرا؟

حمامةَ دِنشواىَ وأيُّ سجعٌ سجعتِ وأىّ ريح عنك مَرًّا

رمتك من الظّهيرة ذاتُ لفحٌ وأمّ فِناءَك الإعصارُ عصرا

وأنزلنا البلاءَ عليكِ حتّى تركنا منكِ هذى الأرضَ قفرا

فكم من سانحٍ لكِ عندَ بُرج يُعاقبُه بنوا التّاميز زَجرا

يَرفُ وللخطوبِ السّود نحسٌ أقام مكانَ ذاك البُرج قبرا
وقلب ذاب عند الجلد رهبا ولُب همَّ بالطيران ذُعرا
وشيخ جاوز السّتين عامًا وخطَّ الشيبُ فى فَوْديه سطرا
يكادُ يموت قبل الشنق غيظًا ويُوشِكُ أن يفيضَ النفس قهرًا
أشار مُسَلِّمًا ومضى شَريفًا وعاش من الكِرامِ ومات حُرًّا

تعليق:

يعرض الشاعر لمأساة دنشواى ثم يذكر أن لها دينًا عليه تطالبه بالوفاء به، وهو يُشخص الجرحى ويتمثلها وهى تتصدع وتتوجع تطالب الشاعر أن يجعل من مصيبتها مادة للتاريخ العالمى.... لقد قضى هؤلاء فى السجن حولاً حتى ضاق السجان بهم صدرًا ومثّل (يارنج) فيهم قول فرعون مصر: «أنا ربكم الأعلى» لقد حُرموا الخير على يديه وأصبحت الحمام ـ رمز السلام ـ نذير شؤم وفاتحة غدر.. والشاعر ـ فى تهكم ـ يقسم وظيفة الحمام قسمين (الطيران) لأهلها (اللحم والغذاء) لأعدائها .. وهو يندب حمامة دنشواى حظها المنكود ثم يعدد الحسرات التى حدثت على يد العدو الذى لوث الرُّبا وصارت الربوع به صحراء جرداء .. ولقد عوقب ظلمًا كلُ من لاذ بأبراج الحمام، كما أقام العدو مكان الأبراج قبورًا وأى قبور.. هكذا تتابعت الخطوب عليها تترى وبُدّل منها بحلو العيش مرًا وتزاحمت البلايا ، وأهدرت فيها كرامة الإنسان..!!!

وفى اللواء فى يوليو سنة ١٩٠٩ قصيدة بتوقيع «أبو العلا» وفيها يقول:

قد شهدنا فى مصرَ يومًا عصيبًا ملأ الكونَ ضجةً ونحيبًا
سيق فيه قومٌ خضوعًا إلى القتـ ـل وقومٌ قد عُذِّبوا تعذيبا

بـجـلـد الابـن ثـم يُودَىَ أبـوه ... يـالـه مـنـظـرٌ يـذيـب الـقـلـوبـا

غـسَّلوهـم ولو أصـابوا لجـاءوا ... بدمـوع الأهلين مـاءً صـبـيـبـا

بئس يومُ الخـمـيس سـالتْ دمـاءٌ ... ألْبـستْ (دنشـواى) ثوبًا قـشـيبـا

جـعلتـهـا مـأوى الألوفِ وفـودًا ... (يتـــوارون) ذلةً وشـــحـــوبـا

حـادثٌ خُلِّفَ الـعـقـولَ حـيـارى ... وأصَارَ الولدان فى المهـد شيِـبـا

أزعـج الأرض والسـمـــاء فكادتْ ... أنفسُ القـوم تسـتطيـرُ لهـيـبـا

أمـةٌ عُوقـبتْ بفـردٍ فـمـا أفـ ... ـظعُ حكمًا بالحـاكـمـينَ مـريبـا

لم يريدوا القـصاص من قاتل النّفـ ... ـس ولكن رامـوا انتـقـامًا غـريبـا

أىُّ شـرع يقـضى بذلك حـتى ... لم يُطيلوا بحـثًا ولا تنقـيـبـا

ليس إلا شَــريعَة الهِلبـــاوىّ.. ... قـامَ بالأمـر طائعًا مـسـتـجـيـبـا

كـــان بالأمس بيننا عندليـبًا ... وغـدا اليـوم ناعـقـا غِربيـبـا

لو أرادوا لعاقبوا الشمسَ بالإعـ ... ـدام حـتى لا تؤذىَ المضـــروبـا

****

إيه يا مـــصـــرُ كلَ يوم بلاءٌ ... كم لقـــينا فـــيك العناءَ ضُروبا

يا حـمـامَ الأبراج هلْ نمتَ يومًا ... فـيـه آنستَ للحـمـاة مـغـيـبـا؟

بين جـــهل مُبـــرّح وحـــيـــاةٍ ... تحـــملُ الذّل جـــيـــئةً وذُهوبا

غـفلةٌ تُضـحك الغـبىَّ وتُبْقِى ... أثرًا سـيـئًا فـيبكى الأَبـيـبـا

ربِّ إنَ الأحوالَ فى مصرَ ساءت ... فـامنح الناسَ عـفـوكَ الموهوبا

***

وهناك قصيدة للشاعر الفلسطينى « يوسف اسماعيل البنهانى» عدتها (٥١) بيتا بعنوان «مصر ودنشواى» وفيها يقول: [٢٥]

قل لمن يألف الهدى والرشادا   ويود الإسعاد والإرشادا
خلّ هذا فليس فى مصر إلا   ما يشق القلوب والأكبادا
أتود السرور فى دار حزن   ألبس الحُزنُ ساكنيها الحدادا
هذه الدار والمقيمون فيها   بلد غادرت بنوها السُّهادا
أمن العدل أن تسىء ضعافًا   أقوياءٌ لا تخلف الإيعادا؟
أمن الظلم أن تجود بعفو   يسترقُّ الآباء والأحفادا؟
ربِّ إن العباد تبكى دماءً   أوتَرضى للمسىء يُبكى العبادا؟
أين من يرحم اليتامى ويُولى   دنشواىَ الإسعاف والإسعادا؟
ما الذى تفعله الأرامل فيها   هل ترى الأرامل الأولادا؟[٢٦]

هذه مقتطفات من قصيدة الشيخ « يوسف البنهانى» وضعها بالقسم السادس من ديوانه «حسنات اليراع» تحت عنوان: «الحوادث» ومع تنوع أساليب القصيدة بين الخبر والإنشاء فسمتها: الُحزن والحداد، فالشاعر لم يرد بالأساليب الخبرية إخبارًا لقصد الإخبار بل أراد ما يتعلق بالمقام كالتحسر والتوجع والتفجع، وكذلك الإنشاء والمتمثل فى تكرار الاستفهام هو لا يريد به إجابة بل ما يشف عن حسرة هؤلاء الأرامل والأيتام وما أصاب مصر - ممثلة فى دنشواى - من أرزاء وآلام.

وهكذا كان للمأساة صدى فى الشعر الفلسطينى المعاصر ممثلاً فى الشاعر « إبراهيم الدباغ» (٢٧) والشاعر البنهانى. فالشاعران ممن

تأثروا بمدرسة البعث والإحياء، وهما من أبناء المدرسة الكلاسيكية الحديثة التى حافظت على شكل القصيدة القديمة بيد أنها اتخذت من أحداث البلاد وآلامها المشتركة وموضوعاتها العامة.. مادة حية لأشعارهم.

الهوامش

● ولد أحمد محرم باب الوزير بالقاهرة يوم السبت الموافق ٥ المحرم سنة ١٩٢٤هـ ـ ٢٠ يناير سنة ١٨٧٧م وينتهى نسبة إلى ملوك الشراكسة، وإن كانت أمه قد اختلط نسبها بعائلة «الدرملى» الشهيرة بالقاهرة وأغلب الظن أنه لقب بمحرم ذلك لمولده فى ذلك الشهر... واتجه فى شعره اتجاهًا إسلاميا وطنيًا فكان حريًا على الاحتلال وظل هكذا أكثر من نصف قرن إلى أن توفى يوم الأربعاء الموافق ١٣ يونيه ١٩٤٥. واهذا فقد أشاد به الزعيم مصطفى كامل على صفحات اللواء وسماه «نابغة البحيرة». (راجع شاعر العروبة والإسلام أحمد محرم للأستاذ محمد الجيوشى ط/١ سنة ١٣٨١هـ ١٩٦١م. وكتاب مهرجان الشعر الرابع للمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ط. الإسكندرية ١٩٦٢م.س

(١) راجع. شاعر العروبة والإسلام أحمد محرم للأستاذ محمد الجيوشى ط.١ سنة ١٩٦١م.س

(٢) من مخطوطات الشاعر.

(٣) مجلة المجلات العربية العدد ٦, ٧ (يوليه ١٩٠٦) ص٢, ٤.

(٤) جريدة الأخبار عدد أكتوبر ١٩٢٥م.

(٥) نشرت هذه القصيدة فى سنة ١٩٤٠م.

● (هو أحمد بن ذى الفقار بن عمر الكاشف) (١٢٩٥ ـ ١٣٦٧هـ ـ ١٨٧٨ ـ ١٩٤٨م) ولد فى قرية القرشية بمديرية الغربية تلقى بها مبادئ القراءة والكتابة ثم دخل مدرسة الضباط الكبرى بطنطا، عكف على المطالعة والنظم بعيدًا عن حلبة المدينة زاهدًا فى الزخارف المموهة... (مقدمة الديوان).

(٦) ديوان الكاشف جـ ٢/ ط ١٩١٣ س

(٧) مجلة المجلات العدد ٨, ٩, ١٠ ص سنة ١٩٠٦.

(٨) فى مقدمة ديوان الكاشف ص٣.

● كان أستاذًا يعترف بأستاذيته شوقى وحافظ وغيرهما، تولى منصب محافظ الإسكندرية (١٨٩٦ : ١٨٩٩) وفى تلك الفترة أراد الزعيم مصطفى كامل أن يلقى خطبة وطنية فى الشعب فأوعزت الحكومة إلى المحافظ (إسماعيل صبرى) لمنعه وفض الاجتماع المعد لذلك بحجة المحافظة على الأمن والنظام فأبى إسماعيل صبرى باشا وصارح الحكومة بأنه مسئول عن الأمن والنظام. ذكر هذه الواقعة الأديب أحمد الزينى فى مقدمته لديوان اسماعيل صبرى ص. ٣٢.

(٩) راجع مقدمة إسماعيل صبرى بو أميمة للأستاذ: عامر محمد بحيرى.
(١٠) ديوان إسماعيل صبرى ص ٥٧.
(١١) يقال: أقلت عثرته إذا عفوت عنه وصفحت عن زلته ودفعت عنه ما يتوقع من مكروهها ـ والأخرق الأحمق والسيىء الرأى.
(١٢) تتألق: تضىء وتشرق، هو يزيد الصحيفة التى كُتب فيها الأمر بالعفو.
(١٣) ترمق: أى تنتظر ـ ويريد أن مصر تتوق إلى أسمى من ذلك وهو استقلالها وحكمها بالدستور.
(١٤) المهند: السيف كنى به هنا عن الجيش الإنجليزى، يقول: إن الجنايات على أعالى مصر لا تزال تتوالى ما دام الاحتلال فيها.
(١٥) اللواء فى ١ يوليو ١٩٠٧.
(١٦) زلت الشىء من مكانه وأزلته وزيلة فتزيل أى فرقة فتفرق.
(١٧) الواجم: الذى اشتد حزنه حتى أمسك عن الكلام.
(١٨) اللفافة: ما يلف على الرجل ونحوها. وتضرم : المراد تحرق.
● من علماء الأزهر ت/ ١٩١٠/١/٢٧.
(١٩) اللواء ٣ يوليو ١٩٠٧ ص ٢
(٢٠) الأبيات تعوزها الوحدة العضوية ولذلك قدمت وأخرت بعضها حسب فهمى لها ولزم التنبيه.
(٢١) يجمل أن أذكر طرفًا من حياته على لسانه هو .. يقول: «ولدت من أبوين فقيرين ولما بلغتُ العقد الثامن من عمرى توسم خالى فىَّ الذكاء ـ وكان ذا سعة فى الرزق ـ فأدخلنى إلى المدارس الابتدائية على نفقته فأتممت دروسها ووجدت عندى ميلاً غريزيًا للغة العربية فملتُ لتعليمها. وانقطعت لدراستها فنظمت الزجل والشعر وصرت زجالا وشاعرًا فى وقت قصير انظر مقدمة ديوانه جـ ٤/١.
(٢٢) اللواء فى يوليو سنة ١٩٠٧.
(٢٣) أنظر ديوان محمد إمام العبد جـ١ طبعة القاهرة:
● من الشعراء الذين عاشوا المأساة (اللواء يوم ٢ يوليو ١٩٠٧).
● أحد الشعراء الوطنيين فى تلك الحقبة وله ديوان أسماه الطليعة. (اللواء ٦ يوليو ١٩٠٧).
(٢٤) أزرت العين دمعها: صبته.
(٢٥) ولد الشاعر بقرية أجزم من مدينة حيفا (١٨٤٩م) وتوفى (١٩٣٢م) والقصيدة فى ديوانه «حسنات اليراع» ص٦١ ـ ٦٥. وقد أشار إليها الدكتور كامل السوافيرى فى كتابه الاتجاهات الفنية فى الشعر الفلسطينى المعاصر ص٣٣.
(٢٦) الاتجاهات الفنية فى الشعر الفلسطينى المعاصر للدكتور كامل السوافيرى ط/١ الأنجلو المصرية، القاهرة ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م ص. ٣٥ ـ ٣٦.
(٢٧) شاعر فلسطينى عاش فى مصر وانفعل بالمأساة كواحد من أبنائها الوطنيين. راجع قصيدته «ذكرى دنشواى» ص٩٤.

الفصل الخامس
متفرقات شعرية

وقد عقدت هذا الفصل للمقطوعات الشعرية التى أرسلت إلى الصحف والمجلات حينئذٍ وهى تحمل توقيعات معظمها مجهولة النسبة؛ ربما تكون مصرية أو غير مصرية.

فتحت عنزان رحماك بالزغاليل نشرت مجلة «خيال الظل» عدد الجمعة ١٢ يوليو ١٩٠٧ هذه المقطوعة[١]:

أيا لورد فى طول البلاد وعرضها	زغاليل من حر الفراق تطير
فكُلُّها إذا حطَّت لديك بلندن	فأمثالها فى دنشواى كثير
ولكنَّ هذى هضمُها فيه راحةٌ	وتلك لعمرى هضمهن عسيرُ

وبتوقيع أحد النظار نشرت «خيال الظل»[٢]

من حين حادثة الحمام تولدتْ	عندى المخاوفُ والسقوط بدا لى
فعزلت عن مصرَ وراحتْ سطوتى	ولزمت مغصوباً على الاحتلال
ولقد علمت بأمر مقدم «حافظ»	مع «مصطفى» لزيادة اضمحلال
فاشتد خوفى من مجيئهما هنا	ولذا أخاف إذا رأيت خيالى!!!

وبتوقيع ج. ج نشرت جريدة خيال الظِّل بعنوان: «عزاء المقطم» قولها: [٣]

اليـــــوم ينتـــــحـــــر المقطمْ ويقـــوم فى مـــثـــواه مـــأتَم
ويشق صـــفـــحـــة خـــدِّه نـدمًا ولاتَ زمـــــانَ مـنـدمْ
كم حـــارب الـوطنَ الـعـــزيز وباع صـــالحـــه بدِرهمْ
ولـطـالما قلب الحـــقـــائق فى ســيـاســتــه وأوهـمْ!
مـــتـــعـــثّرًا فى رأيـه مـــتـــورطًا فى كل مـــأتم
ينســـاب فى وسطِ الحـــوادث مـــثلَ مـــاينســـاب أرقم
فـــيـــحل من أقـــوى المرافق والمراشـــد كلَّ مُبـــرم
ويثـــنـــيـــر من بينِ المشـــاكل عـــثـــيـــرًا بالشـــر أقـــتمْ
وإذا ارتـدى ثـوب النصـــــوح بان منه الشـــهـــد علقم
مـــاباله مـــتـــذبذبا (ومُعـــدِّدا) فى كل مـــأتم
إن كـــان سُوريًا فـــمـــا أقـــسى عـــوامله واظلمـــوا
أو كـــان مـــصـــريًا فلِمـــا فى الكيـــد أنجـــد ثم أتهم
أو كـــان عـــبـــد الاحـــتـــلال فكيف ينصـــحنا ويرحم؟

وللشاعر (الصديق بن عبد الله) ذكرت جريدة «خيال الظل» له هذه الأبيات[4] بعنوان: دنشواى... دنشواى

وارحمتاه على شهيدٍ قد قضى وعلى سجين داخل الأقفاص
يتطلبـون من ملك السـمـا إذ أنهم أخذوا بغير قصاص
مـاذا يضُرُّك يا(وجيدُ) فكاكهم لو كنتَ (حراً) من ذوى الإخلاصَ
لكنَّمـا خُبثُ الطبـاعِ بذا قَضَى وكـــذاك كل منافقٍ هجَّاصِ

وللشاعر نفسه هذه الأبيات:[5]

لاتنسَ ذِكرى دنشواىَ ومَن لَقَوا ربُّ البـرايا بالنفـوس الطاهرة
اذكـر لنا يالوردُ أى جـريدة للسـجن والكُرباج ثم المقـبـره
وإذا السياسة ألجأتك أمورها للكذب فى مصـر وفى إنكلتره

فانسب إلى الإسلام كلَ تعصب وبأن أمـــتنا القــوية مــدبره
وتوعــد المصــرى بكل كــريهــة واســتل منه الرأس عند القــدرة
واخصص جماعتك الذين تركتهم كــل الــثــنــاء لأنــهــم مــن لــنــدره
واذكــر لنا السـبب الذى من أجله بعث البــواخــر لم تغــادر باخــره

وللشاعر الصديق أيضًا أبيات بعنوان «على ذكر المقطم وحزبه»[٦]

يقـــولون المقطم ُربٌّ حـــزبٌ يبــالغ للأهالى فى النصــيحــة
ويكتب فى تآلفــهم فــصــولاً مُدَّبَجــةٍ بأقــوال فــصــيحــه
وينعتُ بالكفــاءة كل مــصـــرى وللنزلاءِ أوصــافٌ قــبــيحــة
وكم وقف الرئيس بهم خطيــبــا يلقّنهم مـبــادئه (الصــحــيحــة)
فــقلت وحقٌ ربى قــد كــذبتمْ فما عند الدَّخيل سوى الفضيحة

وبتوقيع ع. ص. وردت هذه الأبيات بعنوان «ماذا يقول اللورد»[٧]

أمـا كـفـا «حـافظاً» مـاقـال منبـره ومـاأتى بخـيـال الظل من صـورِ
حتى آتى هـهنا يبغى معـارضتى فى البرلمانِ وتكذيبى مدى العمـر
تـركـتُ أهـلى وخِلانـى علـى عَجَلٍ إلى (نيوقوسيا) لأن العزَّ فى السفرِ[٨]

وورد بتوقيع ابن الحسنين[٩] «على ذكرى اللورد وحفلة الوداع»

قـالوا جـمـعنا للعمـيـد أكـابرا من قـومنا وقـومـهم وعِظامـا
فـاسـتنكر اللورد الجـمـيل كـأنه حَسبِ العظَامَ الحاضرين عظاما

كما ورد بتوقيع «النسر الصغير» هذه الأبيات:[١٠]

انحـيت باللوْم الشـديد على الأُلى خـدمـوا البـلاد وفـضلهم لم ينكر
ومـدحتَ قـومك والذين صنعـتـهم فــبــأى شىء بعــد ذلك تُذكــر؟
تنبــأ «يارنج» بأن احــتــلالك يدم إلى مـاشـاء ربك فـى مـصــر
فـــقلت له أن التنبـــؤَ كـــاذب كأنك لاتدرى بمن حل فى القصر

ونُشر بتوقيع «عبد المؤمن كامل حكيم» قوله:[١١].

يأيهـا المعـزول لا عن رضـا | إنا حـمـدنا فى نواك القـضـا
سرتَ فـصـار البشـر قَسَمًا لنا | من بعد طُول الحزن فيما مضى

وقوله أيضا:

اللورد يطعن والرشـيـد يؤوِّل | فـعلى الزعـيم أو الزنيم نعـوِّل
رحل الزعـيم فـمـا أحق رحيله | ومشى الزعيم إلى المقابر يرحَل

وبتوقيع «أحد رؤساء الأقلام» نشرت خيال الظل هذه الأبيات:(١٢)

قل للوزير الذى غـرَّته دولتُه | قد يرفعُ الدَّهر أحياناً وقد يضَع
كل ابن أنثى وإن طالت وزارته | يوماً مع الناس فى الوابور يجتمع
عبستَ من رؤيتى فيه وكان لنا | لو شئتَ فى (المركب المحجوز) متسعُ

وبعنوان: (نفثة مصدور) وردت هذه الأبيات:(١٣)

ومارسلوا فينا صديقاً كما ادَّعوا | ولكن شديدًا قام يذبحنا ذبحا
يُهـيـئنا للنائبـات وإنَّمـا | يلوح لنا سمحًا ويوهمنا نصحا
ويحتالُ فى استقلالنا ليدكَّهُ | ويبْنى على أطلالهِ لهم صرحا
فلم يدخر فيما توخَّى وسيلةً | من العسْف إلا اجتازها يطلبُ النجحا
ومادِنْشـواىُ بيننا ببعيـدةٌ | وقد تركت فى كل ذى كبدٌ جُرحا
ومن شاء شرح الحادثات التى انقضتْ | وقد دُّس فيها سمُ سئمُ الشَّرحا
فلا لومَ إن قُمنا نهـدُّم مـا | لنرجعَ مجدداً شامخاً كاد أن يمحا

وبعنوان إلى حزب الأحرار (أصحاب المصالح الحقيقية)(١٤)

قل للذين تجمَّعوا وتجمهروا | وتقدَّموا نحو الجدال وشمروا
تُوبوا إلى رشـدُ ولاتتعرضوا | للطيبين فإن ذلك منكرو
مافى البلاد صحائفُ وطنيةُ | (إلا المؤيدُ، واللواء، والمنبـر)
صحف بحمد بلادها قد سبَّحت | وغدت تقدِّس ذكرها وتكبـرُ

إن المقطم والذين سمعتهم ... حكموا على تلك البلاد وقدَّروا
أن يوهموا قوماً بزُخرفِ قولهم ... أو يمكروا فالدهر منهم أمكر
تلكَ البلادُ وشهمها وأميرها ... وصغيرها وأديبُها والشاعرُ
لم يعنهم شيءٌ سوىَ استقلالهم ... وسواهُ شيءٌ عندهم لايذكرُ

وبتوقيع «شلب» وتحت عنوان (وداع الشبيبية المصرية) نشرت جريدة (خيال الظل يوم الجمعة ١٩٠٧/٥/١٠)

ياراحلاً عنها وذكرك خالدُ ... أبداً ليحيى بيننا الآلاما
سرْ بالسلامة حاملاً زَفَراتنا ... واذكر مقامك بيننا الأعواما
واعلم بأنك قد أهنت ديانة ... كم أخضعت لنبيها الأفهاما
هل ينكر الأقوام أنَّ محمداً ... ملأ الوجود بل اسأل الأياما
كم قام قبلك من دعى يرتجي ... طمسَ الظلام فما أصاب مراما
مدينة الدنيا أجيبي جاهلاً ... أوَليس واضعُ اسمك الإسلاما؟
لكنما الأغراضُ تُعمى أهلها ... حتى يروا ضوءَ النهارِ ظلاما
هذا ختامُك بين قوم أحسنوا ... لكَ صنعه أحسن بذاك ختاما

صلاح عبد الصبور*

للشاعر صلاح عبد الصبور فى هذا المضمار قصيدة طويلة بعنوان:

شنق زهران[١٥]

وثوى فى جبهة الأرض الضياءْ......
ومشى الحزن إلى الأكواخ، تنينٌ له ألف ذراعْ
كل دهليز ذراعْ....
من أذان الظهر حتى الليل..... ياالله.... فى نصف نهارْ.....

كل هذى المحن الصمـاء فى نصف نهـار.... مـذ تدلى رأس زهران
الوديعْ كـان زهرانُ غـلامـاً..... أمـه سـمـراء والأب مُوَّلد...... وبعـينه
وسامةٌ وعلى الصدغ حمامةْ.............. وعلى الزند أبو زيد سلامه
(ممسكًا سيفًا)... وتحت الوشم نبش كالكتابة.... اسم قرية «دنشواى»
شبَّ زهران قويا..... وتقياً......

يطأ الأرض خـفـيـفًا.... وأليـفًا..... كـان ضـحَّاكًا وولُوعًا بالغناءْ
وسـمـاع الشـعـر فى ليل الشـتـاء..... ونمتْ فى قلب زهـران زُهـيرةٌ
ساقها خضراء من ماء الحياة..... تاجها أحمرٌ كالنار التى تصنع قبله
حينما مرَّ بظهر السوق يوماً......

ذاتُ يوم... مـرَّ زهـران بظهـر السـوق يومـاً.... واشـتـرى شـالاً
منمنمْ....

ومشى يختال عجبا، مثل تركى مُعمَّم.. ويجيل الطرف...

ماأحلى الشبابْ.. عندما يصنع حبا عندما يجهد أن يصطاد قلباً...
كانْ ياما كان أن زفت لزهران جميله...

كان ياما كان أن أنجب زهران غلامًا... وغلامًا

كـانْ يامـا كـان أن مـرَّت ليـاليـه الطويلة... ونمتْ فى قلب زهرانَ
شُجيرةْ

ساقها سوداءَ من طين الحياه... فرعها أحمر كالنار التى تُحرق
حقلا

عندما مرَّ بظهر السوق يوماً... ذاتُ يومْ...

وراء النَّار التى تُحرق حقلاً... وراء النار التى تَصّرعُ طفلاً...

كانْ زهرانُ صديقاً للحياه... ورأى النار تجتاح الحياه

مدَّ زهرانٌ إلى الأنجم كفا... ودعا يسأل لطفاً... ربما...

سورة حقدٍ فى الدماء... ربما استعدى على النار السماء...

وأتى السيّاف مسروراً وأعداء الحياة
صنعوا الموتَ لأحباب الحياه.... وتدلّى رأسُ زهران الوديعْ
قريتى من يومها لم تأتدمْ إلاّ الدموع...
قريتى من يومها تأوى إلى الركن الصديعْ
قريتى من يومها تخشى الحياه.... كان زهران صديقاً للحياه
مات زهرانُ وعيناه حياه.... فلماذا قريتى تخشى الحياه؟

تعليق:

هذا أنموذجٌ من الشعر الحر الذى فرض نفسه على الساحة الأدبية وهو يتميز بالسطر الشعرى الناشئ عن الدفقة الشعورية، وشاعرنا جمع أهوال المأساة فى قصة رمزية رمز فيها إلى دنشواى وجعل زهران رمزًا لأبنائها وقد اشتد عوده، وأصبح يأمل مايأمله أترابه فإذا به أحدُ المشنوقين ظلماً وانتقاماً لا لذنب إلا أنه سأل ربه لطفاً ووقاية من هؤلاء الظالمين فكان عبرةً لمن حولهً..!! وإذا أمعنا النظر وجدنا الشاعر يستخرج من الواقع رموزاً إنسانية لاتخدم فكرته فحسب بل تخدم غرضه الفنى كذلك، فالحمامة رمز للسلام الأزلى وأبو زيد سلامة «ممسكًا سيفًا» هذا البادى على زند زهران هى تهيئة ماكرة للجو الملحمى، وأبو زيد الهلالى فى خيال الفلاحين المصريين رمزٌ للبطولة الشعبية. ويخيل إلينا «من قراءة صلاح عبد الصبور أن زهران قد شُبِّه له أن السماء ذاتها قد نصَّبته أداةً لتحقيق العدالة الإلهية»(١٦)

فالشاعر يعرض لحياة كانت آمنة مستقرة قائمة علي الحب والتآخي بين أبناء القرية، فهو يرمز بزهيرة وشجيرة - المصغرتين - إلي وداعة زهران وبراءة تلك الحياة البسيطة ثم ينتقل بالرمز في (أنجب غلامًا... وغلامًا) إلي الحياة الأسرية التي تحولت إلي الرجولة المثقلة بالخبرة بعد البراءة والوداعة وهي مستقرة إلي أن جثم الاحتلال

البغيض علي صدر البلاد، فتحول الغصن الأخضر (رمز الأمن والسلام)) إلي تاج أحمر رمز الدماء والدمار، وللقارئ أن يتخيَّل مافي هذا اللون من معان، لك أن تتخيلها من حرارة القبلة إلي احتراق بنار الحقد والدمار.!

وهذه «رواية سياسية شعرية لأحد مسجونى دنشواى»(١٧)

نظر اللورد إلى القصر الفخيم ... وبه من كل واشٍ ونديم
مايسُّر المولى العظيم ... ورأى التبجيل والعِز المقيم

فبدا فى مظهر المقتدر

نظر الأنهار تجرى تحته ... ورأى الفلاح يخشى صوته
فتعالى وتناسى موته ... قال بعض الدخلاء ما نلته

نلته عن دقة فى النظر

أين منك اليومَ كسرى العَجَمْ ... سيد الشرق حِمى المعتصمْ
أنت ذو الحلم الكثير الكرم ... أنت عالى الكعب بين الأمم

أنت فخمٌ الظاهر المنتصر

أنا عصرك عصرك الذهب ... لم يكن يحكيه عهد العرب
أنت يالورد بأمى وأبى ... نلتَ فى عصرك كل الإرب

ورأيتَ اليسرَ بعد الضّجر

الفصل الثانى

سمع اللورد الوشاة الدُّخلا ... حساباً أنَّ له الجوَّ خلا
فإذا مستأذنٌ قد دخلا ... صَدرٌ اللورد ونادى قائلاً

ذاك يامولى أميرٌ قيصرى

نحن يامـولاى قـومٌ دخـلا أتتـركنا بيـن الملا
عـرضـه للذل من بعـد العـلا أنت مـولانا وكنت الموئلا
ولقد صرنا على منحدر

قـال لاتخشـوا ونادى الوزرا فـأَتوا والدَّمع يجـرى أنهـرا
قـال ياصـحـبى أعِدُّوا الأوبرا واجعلوها مااستطعتم محشرا
كى يرى العدا بها كلَّ مسرى

قـال رأسُ الوزرا: ياسـيـدى لم أجـد من سـامع أو منجـد
غـيـر رهطٍ من كـرام أنا والنظار جـمـيعًا نفـتـدى
سيدى انظر قصور واعذرا

بينمـا كـان الوزير المصطفى يذرف الدمع ويبـدى الأسـفى
سـمع الكل (كـريمًا) ملحـفـا قـائلاً أنى قـرأتُ الصّحـفـا
أترى بينكم من منكرى

الفصل الثالث

خطب اللـورد وكل سـامعٍ وهفـا اللورد وكل خـاشعُ
خـافض الرأس مطيعٌ خـاضغٌ ليس فـيـهم من رفـيقٍ
يجزعٌ
أو أقوىٌ باسلٌ شهمٌ جرىء

قـال إنى مـصلحٌ هذه البـلاد أنا من أيقظكم بعـدَ الرقـاد
أنا مـهـديكم إلى سـبل الرشـاد أنا مـوليكم مـصـابيح الوداد
وأتيتُ اليوم أبدى كدرى

أنا لايفـخـرنى من عـهـدِ عـادٍ حاكمٌ فى مصرَ ميسورُ السواد
كل من فى مصـرَ قبلَ اللوردِ باد أنا مـولاكم أنا ربُّ العـبـاد
أترى يامصطفى من كافر؟

أنــا أدرى الـنــاسِ بـالآتـى لـكـم   وأنـا مـن كـــان يدرى حـــالكم
فـــإذا مـــاقلت قـــولاً هـالكـم   فـاسـمـعـوه من فـتـى أنزلكم

هـازئاً منزلة المحتضر

ليت من يسـمـعنى يبـصـرننى   كلُّ من فـى مـصــر لاينظرنـى؟
آيـتـى فـى كل مـن يكـفــــرنـى   إننـى القــائل (مــايحـضــرنى)

بشروا الأعمى بنسل

الفصل الرابع

لم تكن يالـورد تـدرى مــاجــرى   أتـرى تـدركِ ســــرَّ الأســــرى
فـــــإذا كنـت عـلـيـــــمــــــاً   فلم لمْ تُمحِ مـــاقــــد سُطِرا

من وزيرٍ وهو بعض البشر..

تظـنُّ الـغـــــيب أمـــــرًا هـيـنـا   واكـتـشـاف الغـيب سـهــلاً لّيّنًا
لا ورب الـنــاس مــــاهـذا لـنـا   بـل لمـن إن شــــــاء لايـخـذّلـنـا

رغم تهديد الفتى «الكرومرى»

ســـر ولكن ســـائرًا عن رضـىً   نم ولكن نائمًا بين الغــضــــا
قـل ولـكـن دنشــــــواىٌ قـــــد   حكم ذاك الدهـر فيـهـا والقضـا

نافذ فى كل عات جائر

لورد ُ: مـاذنب الأُلـى قـد سُجنوا   ربٌّ لـطفًا قـــد جــفــانا الوسـنُ
وتولانـا الـعـــــفــــا والحــــزن   ربٌّ إن ضـمَّ الـظـلـومَ الـكـفـنُ

فانتقم منه انتقام القاهرِ

ونشرت الجريدة الأسبوعية[١٨] بعنوان:

الموت ولا الاحتلال.. دنشواى فى الأفراح

تقول: «أرسل إلينا وطنى حزين سكن أوروبا (دور غناء) وكتابا يقول فيه: لنجعل شعارانا المشنقة ولنقدس المشنقة فهى سبب حياة أمة.

أرسلت إليك هذا (الدور) وأرجو.. أن يفتتح الغناء بهذا الدور..

ياحمامة دنشواى.. نوّحى للسير «جراى».. تحت الظلام.. كى لاينام.

الشنق حامى.. والضرب داير.. فين المحامى.. مافيش كلام.

(يقول الأستاذ طاهر حقى صاحب الجريدة: «كان هذا الدور يغنى فى السهرات الخاصة، وأنه سمع عبد الحى حلمى يغنيه فى المطرية فى منزل شوقى بك كما غناه محمد سليمان».. ولايخالجنا شك فى أنه نظم عقب حادثة دنشواى، ولكن لم يكن فى المقدور نشره إلا بعد خروج كرومر ومجىء غورست، وأبلغنى الأستاذ «إبراهيم شفيق» حين عرضته عليه أن هذا الدور يسمى «طقطوقة» وهو أروع طقطوقة غنائية سياسية فى العصر الحديث.»[١٩].

الهوامش

(١) رأيتها فى الشوقيات المجهولة جـ٢ ط.٢ بيزوت ص ٨٠ منسوبة إلى أحمد شوقى.
(٢) خيال الظل الجمعة ١٢ يوليو ١٩٠٧.
(٣) جريدة خيال الظل يوم الجمعة ١٩٠٧/٤/١٨
(٤) الجمعة ١٩ يوليو سنة ١٩٠٧ والشاعر من أبناء الزقازيق.
(٥) خيال الظل عدد الجمعة ٢٦ يوليو سنة ١٩٠٧
(٦)خيال الظل الجمعة ١٢ أغسطس سنة ١٩٠٧
(٧) خيال الظل الجمعة ١٢ أغسطس سنة ١٩٠٧ بتوقيع «ع. ص»
(٨) فى الأصل أكوسيا.
(٩) خيال الظل ٦ سبتمبر ١٩٠٧.
(١٠) خيال الظل الجمعة ١٩٠٧/٥/١٠.
(١١) خيال الظل الجمعة ١٩٠٧/٥/١٧.
(١٢) عدد ١٩٠٧/٥/١٧م.
(١٣) خيال الظل إبريل سنة ١٩٠٧.
(١٤) خيال الظل الجمعة ٥ يوليو سنة ١٩٠٧.
* ولد محمد صلاح الدين عبد الصبور بمدينة الزقازيق محافظة الشرقية فى الثالث من مايو سنة ١٩٣١ وتخرج فى قسم اللغة العربية بجامعة القاهرة فى مايو سنة ١٩٥١ عمل بالتدريس ثم بالصحافة ثم مديراً للنشر فى الهيئة العامة للتأليف والنشر كتب الشعر منذ الصغر وكان من رواد حركة التجديد فى الشعر العربى الحديث.
(١٥) ديوان صلاح عبد الصبور ط ٨٦ دار العودة بيروت ص ١٨ ـ ٢٢.
(١٦) راجع دراسات فى أدبنا الحديث. د. لويس عوض ص ١٨٨ ومابعده.
(١٧) خيال الظل الجمعة ١٩٠٧/٥/١٧
(١٨) فى ٣١ يناير سنة ١٩٠٨، وصاحب هذه الجريدة هو الأستاذ «محمود طاهر حقى» الروائى، راجع الشوقيات المجهولة جـ٤٥/٢.
(١٩) راجع الشوقيات المجهولة جـ٤٥/٢، ٤٦.

الباب الثانى

النثر العربى الحديث وحادثة دنشواى

الفصل الأول

الصحافة المصرية

- ١ -

اتخذت الحركة الوطنية شكلاً جديدًا هو الصحافة:

«فقد كانت ما تنشره الصحف موضوع المناقشات على مقاهى المدن وفى أعماق الريف بكل حرية، وكان المتحدثون بلسان هذه الحركة هم الصحفيون ومفكروها ورجالها المحاربون من رجال الدعاية فتزايدت أنواع الصحف وتضاعف عددها»[1].

ولهذا أدرك الاحتلال وعلى رأسه كرومر أهمية الصحافة بل وأثرها فى مصر، لهذا اهتم بإصدار صحف مناوئة للصحافة العربية، كأسلوب جديد بديل للضغط والإرهاب.. واستدعى الأمر أن يمد الاحتلال صحفه الموالية بكل ما تحتاجه الصحافة من مال وغيره مما أدى إلى اختلاف أساليب المدح والثناء والتمجيد بحسنات الاحتلال... هكذا على حد قول القائل: «إن اللُّها تفتح اللَّها» وكانت الصحف تصدر دون رقيب وتقذف من غير حساب، وما ضر الاحتلال أن يصيبه قذف المصريين وفى ذلك تنفيس عن المتطرفين فيهم والحملة على الاحتلال من طبيعة الأشياء مادامت للإنجليز صحف تقذف خصومهم بالمثل،

وتجرحهم وتنال منهم صغيرًا وكبيرًا .. ولو وزن الكَسب والخسارة فى هذا الميدان لكان الإنجليز الكاسبون وكان غيرهم والخديو هم الخاسرون»[٢].

ولعلى أتصور معركة عارمة بين أصحاب الأقلام على اختلاف مرماها وأهدافها منذ وضع الاحتلال أقدامه فى مصر... ولعله من طبيعة الأشياء أن يشتد انقسامًا لصحف حول المأساة كما اشتد الانقسام حول الحكام... ونظرًا لقسوة المأساة فقد أمعنت الأقلام في الانقسام، وأشعل المظلومون الاحتدام والانفصال، فرموا الأبرياء بالبله حينًا وآخر بالإجرام، حينما أرادوا الدفاع عن أرضهم، أرزاقهم وكرامتهم.

- ٢ -

لنا أن نتصور ثلاثة نفر من أصحاب الأقلام أو ثلاث طوائف متباينة التأويل والأفهام...

(أ) فهذه صحف الأحرار الغيورين الأخيار (كاللواء ومجلة المجلات وخيال الظل والمنبر) ومن اهتدى بهديهم وقد أيد هذا النهج الصحفى طائفة من الصحف الأجنبية فى مصر والخارج.

(ب) ونهج آخر يتمثل فى الصحف المعادية والأقلام الجائرة.. وأهمها (المقطم - مصر - الشرق) ومن اقتفى آثارها.

(ج) وفريق ثالث: وقف موقف المحايد غير المنحاز أمثال (صحف دار الهلال والمؤيد والأهرام) ومن حذا حذوهم...

وسأبدأ بالحديث عن هذا الفريق الثالث:

فقد اقتصر «الهلال» حينذاك على ما يهم أمورها الخاصة وربما جاملت «كرومر» وأثنت على آرائه وحسن تقديره للأمور، كما نسبت

للمصريين أنهم يثقون فى سعة علمه واعتمادهم على تدبيره. وبعد ما اطلعت على بعض أجزائها، أقول عن يقين: إن هذه المجلة كانت بعيدة عن الوطنية كل البعد، إذ مرت على الحادثة مرور الكرام ولم تعيرها أى اهتمام اللهم إلا ما يصلح أمر الاحتلال، فقد صدَّرت العدد الثامن بهذا العنوان.. (أشهر الحوادث وأعظم الرجل) ثم نشرت أسفله صور اللورد كرومر، ثم كتبت تعريفًا مطولاً وتحليلاً دقيقًا عن اللورد، وكثيرًا ما أشادت به ثم ذكرت خطابه مفصلاً ومبوبًا بمناسبة حفلة تكريمه التى أقيمت بالأوبرا .. وسأعرض له بإيجاز إن شاء الله، والعجيب أنها لم تشر بكلمة واحدة تضعف من شأن اللورد، والأدهى أنها عللت استقالته مراعاة لصحته.. وإن تعجب فعجبٌ قولها:[٣] ولا يختلف اثنان أن اللورد كرومر أحسن خدمة مصر إداريًا وماليًا وأنها مدينة له بذلك.

- ٣ -

أما جريدة المؤيد فقد وقفت مثل ذلك الموقف السالف الذكر وكأنها متفرج لا يهمه غير نظرة عابرة، (فهى تعرض للمأساة فتنشر بلاغ نظارة الداخلية ثم تتوقف عن تحديد المسئولية) فتقول: «إنه كان من الواجب أن يقف الأهالى عند حد طلب الكف من إطلاق النار من الضابط، ولا يتضاربوا معه بأن يستنجدوا الحكومة فى أمرهم»[٤].

ثم تنشر ما يوافيها من أخبار مختصرة لا تسمن ولا تغنى من جوع ثم نوهت بعقد المحكمة المشئومة والتى انتدبت (إبراهيم الهلباوى) ولكنها تركت بعض الأقلام الحرة تُعقب على الحادثة، وتنشر نص مرافعة الهلباوى حينما قال: «إن المتهمين من أهالى دنشواى اجتمعوا وتجمهروا وأوسعوا الضباط ضربًا بالنبابيت توفى على أثره «الكابتن بول» وأصيب غيره بجروح عديدة، وحيث إن هذا الجرم من الجرائم

الفظيعة... نلتمس الحكم عليها بأشد عقوبة» كما تناولت تهمة التعصب بفتور فى مقالها:

«للتعصب نظام»

(والخلاصة أن اعتدال المؤيد وعدم التعليق والتحقيق والاكتفاء بنشر الأخبار.. أثار الشكوك حولها بل أدى إلى اعتقاد الجمهور فى أنها لم تكن المعبرة عن آماله وآلامه، وإن تعجب فعجب قولها عن مصطفى كامل: «إنه فتى طائش مجنون وأنه سيجلب البلاء على البلاد، وأن الحادثة كان فيها ما كان، وانتهى الأمر فيها بذلك الحكم فلا سبيل إلى نقضه»[٥].

فالأهرام تبدأ متأسفة على قتل الضابط البريطانى، معللة قتله بقولها: [٦] «لم يقتلوه لأنه ضابط بل لأنه صياد وأصاب رصاص بندقيته أشخاصًا هاجهم منظر ذويهم وهم جريحون» وفى مقال آخر تُلقى المسئولية على القضاء والقدر ثم تستطرد فتقول: «والكل يأملون ألا تتخذ الحادثة وسيلة للقيل والقال، وأن تحصر فى دائرتها»... ثم تتساءل: «وكيف يصح محاكمة أناس اعتدوا على الجنود الإنجليز وهم لا يعرفون أنهم جنود؟»[٧]. وفى يوم ١٦ يونيه تنشر هذا الخبر الذى يحمل علامات استفهام إذ تقول:[٨] «حكم الأطباء بأن وفاة الكابتن بول كانت بالسكتة القلبية لا بالجراح مباشرة... أما الضرب الذى نتجت عنه السكتة القلبية فإنه أصاب رأس الفقيد الذى سار بعد جرحه نحو ثلاثة أميال..!!

وبعد ذلك بيوم واحد: «فى الفلاحين فى دنشواى بعض الغدر بجهلهم وهمجيتهم لأنهم لا يعرفون مقدار التبعة التى تقع عليهم، بل هم إذ ذهبوا لخصام طاشت أحلامهم وذهبت عقولهم»[٩].

وفى العدد الصادر يوم الجمعة ٢٢ يونية نقرأ لها «إن معظم الجرائد أخذت فى إثارة النفوس على بلدة صغيرة جاهلة فقيرة يدل على جهلها أنها لم تعرف من هم الذين تعتدى عليهم ووراءهم أمة تحكم ثلث العالم وقوة على مسافة ستة كيلو مترات من دنشواى لو أطلقت رصاص بنادقها على ذلك البلد الصغير لطارات بيوتها ومنازلها ..».

إلى أن تقول فى العدد نفسه «بلغنا أن أغلب المتهمين فى حادثة دنشواى لهم سوابق»..!! ولا أدرى كيف توصى بالعدل والرأفة عند إعداد المشانق ثم تقول: «أمران يؤلمان الإنسان ويجرحان فؤاده الظلم من الحكام واعتداء من الأفراد»[١٠].

ولعل ما يكشف سوء طويتها قولها:

«إن اللورد كرومر يؤيدها فى وجهة نظرها إذ يرى العلة فى العمد وحدهم لشدة جهلهم ولا ينتظر إصلاح للحال إلا بعد أن تتربى طائفة من الأمة تربية صالحة لتتولى وظيفة العمدية؛ لأن الفساد والخلل ينتشران بين الهيئات القائمة بأعمال الضبط من الخفير إلى المفتش..»[١١].

ولا يسعها إلا أن تؤاخذ المنادين بضرورة جعل القضية قضية دولية فتقول: «لقد نادينا بقولنا: دعوها فى دنشواى ولا تخرجوها إلى البلاد كلها واحصروا التزيد بصرامة الحكم وبقسوة التنفيذ، فأبى قوم منا إلا أن يجعلوا دنشواى عبارة عن القطر كله..!! وغنم المحتلون الفرصة فنالوا منا أمنيتهم وبعد أن كنا فى موقف الهجوم لأن الحق فى جانبنا بتنا فى موقف الدفاع عن أنفسنا»[١٢].

هكذا تتناول بالنقد المنادين بدولية القضية وتقف ضد تدويلها فى الوقت الذى ترفع جريدة «اللواء» صوتها عاليًا بهذا المطلب، وبينما كانت البلاد فى شغل شاغل وحزن دائم كانت الأهرام تنشر أنباء تافهة تتعلق بقضاء عطلة الصيف للجنرال «بولوك» وغير ذلك من التفاهات(١٣).

وبهذا القدر الموجز استطيع أن أنتهى من هذا الفريق الملتوى الذى ادعى بموقفه هذا التوسط والحياد لأقف على الفريقين المتناقضين الواضحين تناقضًا وهما:

١ - الفريق المجاهر بالخصومة والعدوان..

٢ - فريق الأحرار أو صحافة الأخيار..

ولعل أهم ما تمثله هى: (المقطم - الشرق - البصير - النيل) ويستطيع الباحث أن يلقى الضوء على موقف تلك الصحف المناوئة من قضية دنشواى...

أما جريدة المقطم (عين النفاق) فقد وقفت بجانب الاحتلال، وأصبح موقفها بالنسبة للبلاد على حد قول شوقى فى مسرحية كليوباترا:

(قد صنعت بى عند حاجة الوغى ما لم يكن يصنعه بى العدا)

ولنا أن نتصور موقف تلك الجريدة الحاقدة من خلال تلك السطور.. فهى حينما أرادت أن تعقب على اهتمام المصريين قالت: «إن التهمة تزول إذا أقصينا مثيرى التعصب» وكانت بذلك تعنى التخلص من «مصطفى كامل» وأعوانه.. وحينما نشرت مقالا بعد مقتل «بطرس غالى» باشا على يد أحد الأحرار عام ١٩١٠م قالت بعنوان «التعصب

يشتد ويمتد»... كما عقدت حديثًا حول ضرب بعض الإسكندريين جنديًا إنجليزيًا واتخذت من هذا الحادث سلمًا لاتهام الصحف المصرية بإثارة الرأى العام الإسلامى على المسيحيين)!!(١٤).

ولنا أن نتصور العداوة مطلة من خلال تلك السطور المقطَّمية:

«اتضح من الكشف الطبى على الكابتن «بول» أنه قتل بضربة هراوة في رأسه وشوهدت آثار رضوض كثيرة فى جسده»(١٥).

ثم استطردت فى اليوم التالى بقولها:(١٦).

«انتشر فى المدينة خبر التعدى على ضباط أورطة من جيش الإنجليز فى دنشواى، فكان خبرًا مؤلمًا تصدعت له أفئدة العقلاء تأسفًا واستياءً لا فرق فى ذلك بين الوطنيين والأجانب ورجال الحكومة... أما الرعاع فكانوا يلفظون فى الأسواق مظهرين سرورهم بما جرى، ولا غرو فهم أصل البلاء والشرور، والأنكر أنهم السواد الأعظم ولاسيما فى بلاد الريف، حيث يأتون لا يرهبون للحكومة سطوة القانون إذ تفننوا فى طرق الإفلات والتخلص من القانون عند ارتكابهم الجرائم».!!

«وظل موقف المقطم معاديًا للمصريين مناصرًا المحتلين حتى إلى ما بعد عزل «كرومر» وما يؤيد ذلك موقفها من قضية «الشيخ عبد العزيز جاويش» تلك القضية الصحفية التى اعتبرت أولى القضايا الوطنية من حيث تعرضها لقانون المطبوعات، حينما كتب مقالاً عن ذكرى دنشواى فى لواء ٢١ يونية ١٩٠٩ واعتبرته النيابة سبًا فى رئيس المحكمة وتأريخًا لحياته من وجهة نظر معارضته، وتهاونًا من شأنه فى عيون الناس، وقضى بسجن الشيخ»(١٧).

وقد كان لهذا الفريق العدوانى المنحرف شعراء يناصرونه بزخرف القول، وقد كان الشعر أهم وسائل الصحافة حينذاك، ومن الشعراء الذين ناصروا الاحتلال حينئذ شاعران مصريان هما: الشاعر «أحمد نسيم»، والشاعر «ولى الدين يكن» فقد حاول كل منهما مهاجمة الحزب الوطنى، ومناصرة الاحتلال ومؤيديه...

وقد أفسحت جريدة المقطم صدرها لكل منافق أفَّاك يحمل على المخلصين من أبناء الوطن أمثال هذين الشاعرين، ولعل من سخرية القدر بهذه الجريدة أن تفسح صفحاتها للشاعر (أحمد نسيم) ليمدح الهلباوى - المحامى - على موقفه من القضية فيقول:[١٨].

مــدره النيل لا عــدمتَ ثناء ... من بليغ يهدى لك الأشعارا
ليس هذا مقــام مــدحك منىّ ... فاقتبِل من أديب مصرَ اعتذارا
ليتنى أستطيع نثرَ اللّآلى ... لستّ أرضى لكَ القريضَ نِثارا

بينما نجد له أبياتًا فى جريدة اللواء تقول:

لك الله هلباوى لقد سؤت أمةً ... رعتك زمانًا ثم خنت زمارها
أيامى وأيتــام وأفــئــدة لهم ... إلى الله تشكوا ما ذكرت انكسارها
ستلقى من الرحمن أخذًا بثأرهم ... غداة تلاقيه فيُصليك نارها

فالشاعر «نسيم» واحد من المصريين الذين أضلهم الاحتلال فقال فى إنجلترا كل حميد ووجد فى نفسه الجرأة لأن يقول لكرومر:

إننا نعــرف الملوك ولكن ... إن عــددناهم فــأنت المُقَدَّمُ
ليس إلا إياك مــولى مــفــدّى ... يبدأ القــول فى ثناه ويختم
وإذا قــيل أين أعظم منه ... لم تجد للتى سوى الله أعظم

ثم يختتم قصيدته فخورًا بأنه السابق لمدحه:

تبــــعنى إلـى مــــدحك ناسٌ   إنما الفــضل للذى يتــقــدَّمُ
أنا فى مـصـر شـاعـر قيل عنه   ســاجع فـــيك بالثناء تَرَنَّمُ(١٥)

وحين يقـول شوقى مشيـرًا لعزول (كرومر) نتيجة لجهاد الزعيم مصطفى كامل:

فـاذهب بحـفظ الله جلَّ صنيعُه   مـسـتـعـفـيـا إن شئت أو مـعـزولا

يقول نسيم:(١٩).

حاشاك ما أنت بالمغصوب منصبه   كـلا ولا أنت من عليـاك مـعـزول

وحين يعدد الشعراء سيئاته يرد إليه نسيم كل فضل بقوله:

جعلت مصـر بلادًا أمطرت ذهبًا   فـتـربهـا بمذاب التبـر مـبلول
خلفـتهـا ويد الإسـعـاد تكنفـهـا   دار عليـهـا من النعـيم سـرابيل
حللت فيها وغل الجور مقعدها   ذلاً وفـارقـتـهـا والجـور مـغلول

(ويبــدو «أحــمــد نســيم» (١٨٧٨ - ١٩٣٨م) فى مـيـدان الوطنيـة متناقضًا مع نفسه فحينًا يمدح الاحتلال البريطانى - كما ذكر - وحينًا آخر نظفر فى ديوانه بقصائد وطنية حامية فى الحملة على الاحتلال البريطانى وممثله اللورد كرومر فى مصر بعد أن استغفر الله وعاد إلى حظيرة وطنه، وفى الجزء الأول تبدو صفحة وجهيه بما فيهما من بياض وسواد، فإن بائيته الرائعة التى أعلن فيها ندمه على ما فرط منه واعتذاره ومتابه والتى نشرتها اللواء سنة ١٩٠٨ تتوج الجزء الأول من ديوانه.. ولا ينفرد «نسيم» بهذا الموقف المتناقض فنحن نجد حتى الشاعر «أحمد الكاشف» المشهور بوطنيته يشترك مع موكب الشعراء

فى رثاء الملكة «فيكتوريا» فينزلق إلى المدح المبالغ فيه.. ونحن لا نبسط العذر لأحمد نسيم فى مواقفه الضعيفة من الاحتلال ودولته.. ولكننا نقرر للإنصاف أن الظروف اللعينة قضت على هؤلاء الشعراء الكبار أن ينساقوا فى مواكب متخاذلة طمعًا فى زلفى أو منصب أو احتماء بالحاكم القوى وكان أكرم لهم لو أنهم سكتوا عن الخوض فى أمور لا تشرفهم)[٢٠].

(أما ولى الدين يكن فقد كان أحد الأحرار من جماعة (تركيا الفتاة) الساخطين على السلطان «عبد الحميد» إذ نفاه السلطان من «سيواس»، لهذا فهو بجانب الإنجليز بفرض حمايتهم له من السلطان، وانتهى به الأمر إلى تأييد الاحتلال بمصر)[٢١].

فهو يقول: [٢٢]

أبا الأحرار لا ينساك حرٌّ	شَبَابهمو (يُجلهك والكهول)
رفعت بناءهم وجريتَ معهم	كذاك الغيث يتبعه الشُّبولُ
تُناديك الشعوبُ بكل أرض	فليتك سامعٌ ماذا تقول
تُناجى من حاميها المُرجَّى	وصولتها إذا قامت تصول

(وقد كانت جريدة المقطم تتكون من صحيفتين قبطيتين «مصر، الوطن» ولطالما وقفتا موقفًا عدائيًا بل أثارا الفتن ودعتا فى بعض الأحيان الأقباط إلى التخلى عن جنسيتهم المصرية وينضووا تحت جنسية أوروبية)[٢٣].

هكذا وقف المقطم وبهذا جهر فارس نمر (صاحبها)... وكذلك الأمر لجريدة الوطن تلك التى تناولت القضية بفتور أيما فتور، واكتفت بإشارة مختصرة فى مقال بعنوان «محكمة مخصوصة: تخلُص: «إلى أن

الاحـتـلال لـم يأت نـتـيـجـة كـره علم الاحتـلال والمحـتلين ولا قـصـد سـابق»[٢٤].

والعـجـب ادعـاؤها الحـيـاد فى حـين أنـهـا اتهـمـت اللواء بتـحـريض البرابرة والخادمين والتأثير عليهم كما بررت موقف الهلباوى بقولها:

«ولابد مـن القـول: إن حـضـرة إبراهيم بك الهلبـاوى فطن بـرأى كل عـاقل من المصريين حين تبـرأ من رعاع دنشـواى وعمـلهم الفظيع وطلب تطهير الإنسانية والتشدد فى معاقبتهم، فإن الأمة المصرية أرفع من أن تتصر لبضعة من الأسافل القاتلين «يأتون المنكر ثم ينكرون».[٢٥].

وأمـا جـريدة الشـرق: فكانت أقل تحـامـلاً وأخف وطأة من جـريدتى (مصر والوطن) فكانت ترى نتيجة أخرى لهذه القضية لو أن الفلاحين استخدموا العقل أو لو أن العمـدة كان حـاضـرًا لحسم الخـلاف بالتى هى أحسن(٢٦).

- ٦ -

فريق الأحرار: بدأت الحديث عن الفريق المحايد، ثم عطفت بالفريق المجـاهـر بالخـصـومـة وهـأنذا أقف على هؤلاء المخلصـين الأحـرار... الذين أوقفوا أقلامهم وجوارحهم رهن الوطن ﴿فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين)[٢٧].

ولعل أهـم الصـحف التى تمـثل هذا الفـريق هـى: (مـجلة المجـلات - خيال الظل - جريدة اللواء - المنبر).

فأما مجلة المجلات: فهى علم على مسمى وصاحبها الأستاذ «محمد حسـيب» وهى فـى مـقـدمـة الصـحف الوطنيـة التى استـنكرت مـوقف المستعمرين، وها هى ذى تصدر المجلة بهذا البيت:[٢٨].

والليالى من الزمان حُبالى ۰ مثقلات تلدْن كلَّ عجيبة

ثم علقت على موقف «إبراهيم الهلباوى» تعليقًا مُرًا أصاب حقيقة الأمر قائلة:

«لقد قضى الرأى العام على الهلباوى بك قضاء أشد من حكم المحكمة المخصوصة على الدنشوانيين فنبذه الناس لأنه كان نذير السوء وبوق الرزايا وجالب المحن وسبب البلايا وطالب الإعدام، فهو الموجد للألم الذى أصاب الأمة بأسرها...» وتقول:

«إن الرجل قد انقلب من فلاح مصرى إلى رجل إنجليزى فخلع من فوق رأسه شعار المصريين، وترك تلك الرأس المملوءة بالأفكار عارية تتصاعد منها نياته الخبيثة للوطن الأسيف، كما يتصاعد من بخار المرجل من مدخلته، ومن الغريب أنه مع حبه وتفانيه فى تقليد الإنجليز، وتهالكه فى التفرنج لا يرى الإنسان منه إلا رجلاً أقرب شبهًا إلى العامة والرعاع منه إلى أعظم الرجال..» وتستطرد الصحيفة فى سرد ما جناه الهلباوى:

«وتراه أينما حلّ فى المجتمعات - بعد أن احتجب عنها طويلاً - كان محل التحقير والازدراء وسمع بأذنيه كلمات يرددها الناس منها هو عدو الميلاد وجلادها».. ثم تستطرد فتسجل النادرة الطريفة: (فحينما كان حسين رشدى باشا وزيرًا للأوقاف أراد أن يذهب إلى بيت الهلباوى فى ضرورة ما - فلما أمر سائق عربته بالذهاب إلى بيت الهلباوى صاح الرجل «هى وصلت أنك تروح بيت هلباوى؟ أنا ماأرحش يا سيدى ولو قطعت رأسى». ولكن الباشا كلفه بالذهاب رغمًا عنه فلما قابل الهلباوى ومد يده لمصافحته قال: لقد جئت فى عمل مصلحى وما جئت لأسلم عليك ولا أقبل أن أكون أقل إحساسًا من

سائق العربة الذى امتنع عن الحضور إلى منزلك). ثم تستطرد الصحيفة فتقول:

«مسكين أنت يا هلباوى وألف مسكين لقد خسرت الدنيا والآخرة وعدت لهذه الواقعة بصفقة المغبون فما نلت رضاء الأمة، ولا نلت ما كنت ترجوه من الوظائف..» إلى أن تقول:

«أتبيع أمتك ووطنك وتنقلب فى يوم كنا نرجو فيه أن تكون حصنًا لنا لا سهمًا علينا؟ لقد أتىَّ نفسك مائتى جنيه وخرجت من عالم الأحياء إلى عالم الأموات، وذهبت من صفوف الوطنيين إلى صفوف الأعداء»[٢٩] وهى تعدد الأساليب مصورة صدى الحادثة فى أذهان العالم فتقول:[٣٠].

«لم يحدث منذ خمسة وعشرين عامًا أى منذ الاحتلال الإنجليزى إلى اليوم حادث شغل الأفكار والعالم كله تقريبًا مثل حادثة دنشواى»[٣١].

إلى أن تقول تحت عنوان (الحمام):

«ليست ناقة البسوس التى ضربت بها الأعْراب المثل المشئوم «أشأم من حادثة دنشواى» التى صادها الضابط الإنجليزى فى يوم الأربعاء ١٣ يونية ١٩٠٦ لأن المصائب التى جرتها هذه الحمامة أفدح من النوائب التى كانت ناقة البسوس سببًا فى وقوعها على رءوس ذويها».. «ولما كانت حادثة دنشواى نشأت عن رغبة الضابط الإنجليزى فى صيد الحمام نرى أن تكون ملاحظتنا عنه أول ما يكتب فى هذا الباب. قال المدعى العمومى خلال أقواله: إن الحمام ليس ملكًا للأهالى وأنه يجوز لأى كان صيده.. على أن الحقيقة التى نعلمها هى عكس ذلك على خط

مستقيم لأن الحمام هو ملك أهالى دنشواى شرعًا ولا تدرى لماذا يهتمون ببناء الأبراج إذا كانوا لا يملكونه ولا نفع لهم منه أتراهم يبقون تلك الأبراج للزخرفة والزينة...!!

كلا: إن ذلك ليس بمعقول ولا مقبول «أيريد المدعى العمومى أن يظلَّ الحمام آويًا إلى أبراجه فلا يخرج منها على الإطلاق حتى يقال إنه ملك الأهالى...؟ إن ذلك من المستحيلات لأن الحمام فى كل صقع وناد منذ عهد نوح من الطيور التى يتركها أصحابها تطير فى الجو حرةً لأنها أمينة تعود إلى أبراجها.. وليست كبعض بنى آدم الذين يخونون ولا يعودون إلى أبراج الوطنية والشهامة»...!!

«وما دام أنه قد ثبت بأن ذلك الحمام ملك الأهالى فلم يعد هناك من حق لأحد من رجال الحكومة أو العمدة أو سواه أن يدعو أحد الضباطً لصيده أو أن يبيح ذاك الصيد للعالمين.

هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن الصيد ممنوع نظامًا فى داخل المساكن وعلى مقربة منها وقد ثبت أن الضباط أطلقوا بنادقهم على حمام دنشواى وهو على مقربة من هذه القرية الشقية»[٣٢].

هكذا تبدو فداحة المأساة من خلال تلك السطور الأدبية المؤثرة ومن خلال هذا التمثيل بناقة البسوس، تلك الصورة القديمة المستعارة للشؤم ثم ذلك التعليق الضافى والتحليل الرائع، فناقة البسوس ليست أشأم من حمامة دنشواى وغير ذلك من تصوير الاعتداء على ملك الآخرين بغير حق.. وترى هذا التساؤل بقصد التوبيخ (أيريد المدعى أن يظل الحمام آويًا أبراجه فلا يخرج منها على الإطلاق حتى يقال إنه ملك الأهالى...!!!

وتعترض (مجلة المجلات) أيضًا على تلك المحكمة المخصوصة كما تعترض على التحدى لمشاعر المصريين ولاسيما الأبرياء المنكوبين وتؤيد اعتراضها بالدليل وهو:

حادث جرى فى محكمة مصر الأهلية إذ أوقف رئيس المحكمة المصرى (أحمد فتحى زغلول) المستر مفسود أحد القضاة المشاهير والذى كان يقاطع المحامين والشهود لغرض ما، فأوقفه «زغلول» مما أدى إلى استقالة القضاة، واليوم أرى الأمر قد انقلب رأسًا على عقب فأرى (زغلول) وهو الكاتب لنص حكم المأساة وأحد الشرذمة التى وقفت بجانب كرومر لذا «فمجلة المجلات» تعترض الحادثة ثم ترفع اعتراضها فتقول:

وإننا لا ندرى وأيم الحق كيف أن محكمة يرأسها وزير مصرى عظيم يؤخذ منه حقه الذى خول إليه إلا إذا كان الاحتلال يريد أن يظهر أبناءه على كل مصرى حتى فى مراكز العدل والقضاء التى هى من أرفع الأمور وأجلها مقامًا ...!!. والذى يدلنا على هذا من الأمور المقرة فى القضاء حادث جرى فى المحكمة المصرية الابتدائية الأهلية أيام كان مركزها فى درب الجنينة فقد كان بين أعضاء الجلسة التى يرأسها سعادة «أحمد بك فتحى زغلول» جانب المستر مفسود، وهو رجل قانونى متضلع فكان يقاطع المحاماه والشهود فى بعض الأحيان فلم يرق هذا الأمر لزغلول بك وأوقفه عنه فى الجلسة رسميًا لأنه حق من حقوقه لا يجوز له التنازل عنه، وكان ذلك مدعاة لاستقالة المستر «مفسود» من القضاء واشتغاله بالمحاماه إلى الآن»[٣٣].

خيالُ الظلّ

هى مجلة أسبوعية أدبية مصورة هزلية هادفة، تميزت بأسلوبها الخفيف الهادف وصاحبها «الأستاذ أحمد حافظ عوض»، ولم يكن سلاحها الأقوى فى صورها وسخرياتها فحسب، ولكن كان فيما حوته من شعر على اختلاف أنماطه (وعلى الرغم من ظهورها متأخرة عن المأساة بما يقرب من تسعة أشهر تقريبًا فقد جددت الوطنية فى النفوس بما تنشره من الشعر السياسى والنكتة اللاذعة والسخرية من كرومر وصاحب المقطم وأنصارهما وبما تنشره من مسرحيات وفصول تمثيلية تحمل معانى متعددة)[٣٤].

فقد هاجمت المقطم (عين النفاق) من ذلك ما نشرته من أبيات تحت عنوان (عزاء المقطم) كما نشرت رواية سياسية شعرية لأحد مسجونى دنشواى وغير ذلك كثير.. فتحت عنوان:

«أشياء وأشياء مخصوصة» كتبت تقول: [٣٥]

«يقال: إن المقطم يسعى ليحمل الناس على إرسال تلغرافات

ومكاتبات إليه استحسانًا لما كتب ويكتب فى تسفيه جريدة الجرائد الوطنية على خطبة الوداع وأن يكون كل ما يرد إليه من هذه الرسائل شتائم وسخاتم، يجتمع بها لديه عدد كبير بحيث يكون تام الموافقة لإضافة صفر على يمين ما كتبه هو من هذا القبيل ليكون مجموع وقاحته (٨٦٠) شتمة يرفعها فى مجموعة لجناب السير «فورست» ليرد إليه المقطم الجرائد التى قطعت باعتزال جناب «اللورد كرومر».

فكاهات خيال الظل:

وأسلوب هـذه الصحيفة أن تأتى بالفكاهات فتضمنها ما تريده من أهداف ومعانى، ويضطرنى المقام أن أعرض لبعض تلك الفكاهات:

١ - نجد فى خيال الظل صورة (الحزب الوطنى على قمة جبل)، (وحزب الدخلاء) فى أسفل الجبل ثم أجد هذه الأبيات تخاطب الدخلاء:

هى الشمس مسكنا السماء	فعز الفؤاد عزاءً جميلاً
فلن تستطيع إليها الصعودا	ولن تستطيع إليك النزولا

٢ - سئل (فتحى زغلول) عن أحوال المحاكم بعد عزل كرومر فأجاب: «النهارده بتفلس وبكره بتريش»يشير إلى أنه زمن كرومر كان فى سعة من العيش، وسيأتى أمثال كرومر لينضم إليه فتعود له أيامه.

٣ - وسُئل (زغلول) عن الوطنية فقال: (سفر اللورد طير برج من

عقلى) ففى إشارة إلى المأساة وإلى أبراج الحمام ساخرًا من الإنجليز وأعوانهم.

٤ - كما عرضت لمسألة التعصب فرسمت صورة للورد كرومر وهو يخطب بالأوبرا والجميع مستمعون بينهم شيخان على جانب الصورة كرومر: يقولون إن المصريين لا يعرفون صديقًا ولا يحافظون على مبدأ بسبب تعصبهم للدين، فانظروا: هذان شيخان مسلمان يصفقان ولا يفهمان بعد أن طعنت فى دينهما وسفهت أحلام قومهما (فأى تسامح بعد هذا تريدان)..؟

فهى ترد دعوى التعصب ساخرة منهم متهكمة بهم.

٥ - وهذه أبيات لشاعر متستر يصور فيها الحمام وكأنه تحول إلى طير أبابيل ثم يصب نقمته على اللورد فيقول(٣٦):

ياليت شعرى والأفهام حائرةً	ما غرر اللورد فى تلك الزغاليل؟
إنى لأخشى إذا رُبىّ خوافيها	أن تستحيل إلى طير أبابيل
قالوا العميدُ شفاه الله قد فسدت	فى مصر معدته فى شهر إبريل
فقلت لا تعجبوا منها فقد أنفت	هضم الجريدة أو هضم الزغاليل

٦ - وعرضت لجميع الجرائد وقتئذ لتكتب عنها تقريرًا طبيًا، وتقريرًا آخر قضائيًا على النحو التالى:(٣٧).

التقرير الطبى	التقرير القضائى
جريد المؤيد: وطنية مزمنة	شفيع للوطنية
جريدة اللواء: وطنية حادة	كفيل لرقى أمته
جريدة المنبر: وطنية حميدة	وكيل للحزب الوطنى
جريدة الأهرام: وطنية راجعة	مستعير للوطنية

جريدة الجوانب: وطنية سائرة	لها سوابق
جريدة الجريدة: وطنية خبيثة	موقوفة على الاحتلال وأغراضه
جريدة المقطم: الأطباء غلبوا فيها	سقط حقه بمضى مدة كرومر
جريدة الوطن: سعر داير	محجور عليها لصغر سنها
جريدة مصر: طاعون	فضولى
جريدة الأخبار: زكام	شاهد.................. زور

وأرى من خلال سلوكها هذا أن أصدر عليها هى الأخرى حكمًا كالتى أصدرته ولعله (أنها وطنية حادة وهى كفيلة برقى الأمة..) وهذا ما حكمت به عليها جريدة اللواء، إذ أن هدفها الرسمى مصلحة الوطن والزود عن حياضه وإن اختلفا أسلوبًا وطريقة.

- ٨ -

اللِّواء

وأما اللواء فقد ظهرت فى الميدان الصحافى منذ عام ١٩٠٠م ولما كان صاحبها المحامى الغيور الذى شهد له التاريخ بأنه زعيم عشق مصر من قلبه وأنه أول من بعث الحركة الوطنية من مكمنها فمن أجل هذا... لم تكن الجريدة تعرف مداهنة بل كانت حربًا شعواء على المستعمرين وأعوانهم... ولما كان مصطفى كامل قد امتلأ قلبه بغًا وحقدًا على الاحتلال فقد رأى أن أمضى سلاح يمكن أن يوجه إلى هؤلاء إنما هو سلاح الصحافة؛ لهذا فقد اتفق مع زميله فى الكفاح

(محمد فريد) على تدعيم اللواء بإصدار صحيفتين إحداهما بالإنجليزية والأخرى بالفرنسية.. ولذا... فقد أفسحت صدرها لكل غيور من أصحاب الأقلام. ومن يتصفح هذه الجريدة الخالدة يهنأ بتلك المقالات الوطنية الحارة، منها (إلى أى طريق نحن مسوقون)، (كرومر والحركة الوطنية المصرية)، (ذكرى دنشواى)، (إلى الأمة الإنجليزية والعالم المتمدين وغير ذلك. وقد هاجمت الهلباوى ومن سلك طريقته فى مقالها: (إلى أى طريق نحن مسوقون) واضطرت إلى الكشف عن سبب موقفه فى المرافعة[٣٨].

كما واجهت الإنجليز بهذا النقد اللاذع: «لقد بالغ هؤلاء المبغضون للوطنية حتى قالوا إن معاقبتكم لواحد وعشرين أشد عقوبة باعترافكم إنصافًا لواحد كانت الشمس شريكة فى اغتياله، واهمًا لكم الإنسان لقتل وطنى وخمسة جرحى عدالة دونها عدل كسرى، مع أن التحقيقات التى جرت أمام أعيننا لم تأت بمجرم بعينه، ولا أثيم بذاته بل جريمة وقعت وكانت كل طرق الإثبات فيها شهادة المجنى عليه» إلى قولها:

فالواقع إذًا أن أنصاركم قضوا عليكم قضاء مبرمًا من حيث أرادوا أن ينفعوكم وهذا شأن الأصدقاء الجهلاء...»[٣٩]

وتظل وراء أذناب الفجرة الذين قالوا ما حلى لهم وطاب عن المأساة فنضحوا من معين الهوى ما استراحت له أنفسهم

المريضة فتجد اللواء تسفه أحلامهم وتوهن آراءهم معللة ذلك بأنهم عُبَّاد الدرهم والدينار، فهم راحلون أينما رحلوا، وهكذا عَبَّأت اللواء به الجو دخانًا ساخنًا فى وجه الاحتلال داخل البلاد وخارجها، وقد عرفت اللواء بالدقة فى تحرير الوقائع. وعلى الجملة: فقد أصبحت أمل كل مصرى بل وعربى. وقد بدأت كتابتها عن دنشواى بعنوان:

(معركة دنشواى بين الضباط الإنجليز ونفر من الأهالى) لخصت فيه ما جاءها على لسان مراسلها بشبين الكوم ثم عهدت إلى الأستاذ/ أحمد حلمى لموافاتها بالتفاصيل كاملة.

أما جريدة المنبر: وصاحبها «الأستاذ: أحمد حافظ عوض» فقد عرضت لحادثة دنشواى من جوانب متعددة فقد جاء فيها عدد ١٦ يوليو سنة ١٩٠٦ أن وظيفة المدعى العمومى فى قضية دنشواى عُرضت على «الأستاذ: أحمد عبد اللطيف» المحامى قبل أن تُعرض على الهلباوى فقبلها ولكن على شريطة أن يكون حرًا فى المرافعة فيطلب من العقاب ما يراه موافقًا للجُرم، فقيل له: سننقدك مائتين ذهبًا ويجب أن تقول ما نريد أن يقال فأبى، أما الهلباوى فقبلها كما طلبوا... .

«كما عرضت فى ٦ يوليو سنة ١٩٠٦ لقصة بعنوان «عذراء دنشواى» للكاتب القصصى «طاهر حقى» فى حلقات متتابعة وظهرت الحلقة الأولى (نسَمات الأصيل) وقد أهدى المؤلف

روايته إلى سعادة أحمد شوقى بك شـــاعر الأمـير وفى عدد ٨ يوليو قالت المنبر «قدم القصصى الفاضل مؤلف هذه الرواية حق البحث لشاعر الأمير.. كما رأى القراء فى ديباجة أول أمس»(٤٠).

الهوامش

(١) الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنجليزى. دكتور سامى عزيز. ط. القاهرة ص ١٢-١٣.
(٢) إبراهيم عبده. جريدة الأهرام، ص ٣٣٠.
(٣) الهلال عدد يونية سنة ١٩٠٧، ص ٤٦٥.
(٤) المؤيد ١٤ يونية، ١٨ يونية سنة ١٩٠٦.
(٥) دنشواى والصحافة بتصرف.
(٦) أهرام ١٤ يونية سنة ١٩٠٦.
(٧) أهرام ١٥ يونية سنة ١٩٠٦.
(٨) دنشواى والصحافة ص ٩٦.
(٩) الأهرام ١٧ يونية سنة ١٩٠٦.
(١٠) الأهرام ٢٠ يونية ١٩٠٦.
(١١) الأهرام ٤ يولية ١٩٠٦.
(١٢) الأهرام عدد ٧ يولية ١٩٠٦.
(١٣) راجع دنشواى والصحافة.
(١٤) دنشواى والصحافة، ص ١٠٩.
(١٥) المقطم ١٤ يونية ١٩٠٦.
(١٦) المقطم ١٥ يونية ١٩٠٦.
(١٧) من كتاب محمد فريد ص ١١٢-١١٣ للأستاذ عبد الرحمن الرافعى.
(١٨) المقطم ٤ يوليو سنة ١٩٠٦.
(١٩) راجع ديوان نسيم من (١: ١٠٣).
(٢٠) راجع نور العدل (٦: ٨).
(٢١) راجع خمسة من شعراء الوطنية بقلم محمد عبد الغنى حسن. ط القاهرة الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٧٣، ص ٨٦: ٩٠.
(٢٢) راجع الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر للدكتور محمد حسين.
(٢٣) ديوان ولى الدين يكن ص ٦٣ - ٦٤.
(٢٤) راجع محمد حسين «الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر».

(٣٥) الوطن ١٥ يونية ١٩٠٦.
(٢٦) جريدة الوطن فى ٢٧ يونية ١٩٠٦.
(٢٧) راجع دنشواى والصحافة المصرية.
(٢٨) سورة آل عمران أية ١٤٦.
(٢٩) مجلة المجلات العدد ٦، ٧.
(٣٠) دنشواى والصحافة. بقلم محمد نصر. ص ٨٤.
(٣١) مجلة المجلات العدد ٦، ٧ ص ٣٦٤.
(٣٢) مجلة المجلات، العدد ٦، ٧ ص ٣٨٥-٣٨٦.
(٣٣) مجلات المجلات العدد ٦، ٧ ص ٣٨٦.
(٣٤) مجلة المجلات العدد ٦و ٧ سنة ١٩٠٦م.
(٣٥) خيال الظل يوم الجمعة ١٩٠٧/٥/٢٤.
(٣٦) خيال الظل العدد الثالث مارس ١٩٠٧م.
(٣٧) الجمعة ٣١ مايو، ويوم ٢١ يونية سنة ١٩٠٧.
(٣٨) اللواء أول يوليه، ١٩٠٦.
(٣٩) لواء ٨ يوليو ١٩٠٦.
(٤٠) راجع الشوقيات المجهولة دكتور محمد صبرى، ج٢، ص ٤٣ ط. بيروت ١٩٧٩م.

الفصل الثانى
فى المقال والخطب

سافر المحرر «أحمد حلمى»(١) ليرى المأساة بعينى رأسه وعاد بتصوير بارع أشبه برسام أحسن النظر فأجاد التصوير..!! يقول بعنوان:

يا دافع البلاء(٢)

«ما لمصيبة نازلة من السماء والرزينة طالعة من الأرض الرمضاء آخذتين عشيرة أو قبيلة من بين يديها ومن خلفها وعن أيمانها ومن شمائلها ومن فوقها ومن تحت أرجلها فتخرب الديار وتيتّم الصغار وترمّل النساء وتثكل الأمهات بأثقل احتمالا وأمرَّ طعمًا وأشد إيلامًا مما قاساه أهل قرية دنشواى فى مدى الخمسة عشر يومًا الماضية فى مصيبتهم ولا تفريق فى رزيئتهم بين معتدٍ ومعتدى عليهم وأيهم أخذ فى جرأته برىء من أمثال الواحد والثلاثين نفسًا التى لم تر المحكمة المخصوصة ضدهم شيئًا فبرأتهم، وأمثال: «السيد سليمان خير الله» ذاك الذى بمجرد وقوفه بين يدى المحكمة المختصة ورؤيته الجند شاكى السلاح من حوله كافيين لأن يُخرصوه، لهول ما استحوذ على قلبه الضعيف من الخوف والفزع وارتعدت فرائصه ارتعادًا وارتعشت

أعضاؤه ارتعاشًا وتشنجت أعصابه تشنُّجًا، لم يترك لقواه بنية باقية، حتى أن المحكمة أعفته عملا بإشارة الطبيب من جلده(٥٠) جلدة وكانت حكمت عليه بها، فهؤلاء المنكودو الحظ ساقت لهم الأقدار فى يوم عبوث ذى طالع منحوس أولئك الخمسة الضباط الذين لا يفهم الأهالى لغتهم الإنجليزية ولا يقدرونهم أقدارهم الاحتلالية فظنوهم جاءوا ليفسدوا عليهم أرزاقهم بصيد حمامهم الذى من فراخه يقتاتون، وقد زاد يومهم شؤمًا بإصابة بعض نسائهم والتهام النار بسنابل أقواتهم، فطاشت أحلامهم وغلت الدماء فى رءوسهم حارة فجُنُّوا، حتى تصادم الفريقان فمات من مات وجرح من جرح منهم ولا ذنب لهؤلاء وهؤلاء إلا أنهم تلاقوا فى مكان أحاط به الشيطان من كل جانب ونصب الأبالسة مصائد المصايب فقامت القيامة وحشر من الخلائق من كل جانب ونصب فى «شبين» ميزان الخراب إلى أن يقول: «كاد دمى يجمد فى عروقى بعد تلك المناظر الفظيعة فلم أستطع الوقوف بعد الذى شاهدته فقفلت راجعًا وركبت عربتى وبينما كان السائق يُلهبُ خيولها بسوطه كنت أسمع صوت صياح ذلك الرجل يلهب الجلاد جسمه بسوطه هذا، ورجائى من القرّاء أن يقبلوا معذرتى من عدم وصف ما فى البلدة من مآتم عامة وكآبة مادة رواقها على كل بيت، وحزن باسط ذراعيه حول الأهالى».

ويسترسل الكاتب فيصور ذلك اليوم بأنه أشبه بيوم القيامة... إذ عم الفزع والهلع الجميع، حتى أن الناس والدواب كانوا يدوسون أجران القمح فيهلكونها ولا يستطيع أحد أن ينطق بكلمة.. والكلمات تتعثر فى فمه أمام هذا البلاء الواقع الذى ليس له من دافع.

ومن مقالة للأستاذ: «قاسم أمين» يصف حالة الشعب النفسية وهو يسمع أنباء التنفيذ فيقول:[٣] «رأيتُ عند كل شخص تقابلت معه قلبًا مجروحًا وزورًا مخنوقًا ودهشة عصبيةً بادية فى الأيدى وفى الأصوات، كان الحزن على جميع الوجوه حزنًا ساكنًا مستسلمًا للقوة، مختلطًا بشىء من الدهشة والذهول ترى الناس يتكلمون بصوت خافت وعبارات متقطعة، وهيئة بائسة، فمنظرهم يشبه قومًا مجتمعين فى دار ميت، كأنما كانت أرواح المشنوقين تطوف فى كل مكان من المدينة ولكن هذا الاتحاد فى الشعور بقى مكتومًا فى النفوس لم يجد سبيلاً يخرج منه فلم يبرز بروزًا واضحًا حتى يراه كل إنسان».

وقد كتب الأستاذ العقاد تعليقًا على وصف «قاسم أمين» يقول فيه: «إن القارئ ليتخيَّل الآن وقع هذا الحادث الأليم فى نفوس المصريين ويُعينه على تخيله ذلك الوصف الوجيز الذى وصفه «قاسم أمين» فى مذكّراته، ويزيده قدرة على التخيل أن يعلم أن قاسمًا كان يكتب لنفسه ولم يكّن على اتصال (بأهل الإصلاح) - من المغموسين فى الحوادث السياسية - لكن «قاسم أمين» وكل كلام موجز أو مسهب يقصر على تمثيل ذلك الوجوم المرهوب الذى خيم على الأمة المصرية يوم تسامعت بأنباء الحكم وأنباء تنفيذه ولقد كنا أربعةً نقرأ وصف التنفيذ فى أسوان، فأغمى على واحد منا، ولم نستطع إتمام القراءة إلا بصوت متهدِّج تخنقه العبرات»[٤].

لكنَّ أملاً قد انبثق من روح الأصالة وعبقرية فذة نبعت بالكرامة على يد الزعيم مصطفى كامل الذى تلقى «أنباء الحادثة والمحاكمة وهو بأوروبا وأحس هناك بقلوب الناس وقد اعتلاها اليأس حين رأت أرواح الأبرياء تذهب رخيصة فكان ولابد أن يقف غير مبال بلومة لائم

ليشنها حربًا شعواء على الاحتلال وهو فى عقر دارهم بباريس وكتب مقالته الشهيرة فى جريدة: (الفيجارو) الفرنسية.

بعنوان : إلى الأمة الإنجليزية والعالم المتمدين

وفيها يقول:(٥) «لقد حدثت حادثة مؤلمة فى قرية من قرى الدلتا بمصر تدعى «دنشواى» تحركت بسببها عواطف الإنسانية فى العالم كله وقام رجال أحرار الفكر مستقلو الأخلاق والأطوار فى إنجلترا رافعين أصواتهم سائلين عما إذا كان يوافق كرامة الدولة البريطانية وشرفها ومصلحتها أن تسمح بأن يُرتكب باسمها أمر ظالم قاس؟..!! وإنه لمن الواجب على الذين يشفقون حقيقة بالإنسانية والعدل أن يدرسوا هذه القضية ويصدروا فيها حكمهم العادل وهى المسألة الشاغلة لأمة بأسرها».

بهذا التقديم الرائع مهد الزعيم للحادثة فأثار شجون من يتصدى للمعرفة أو من يهمهم حقوق الإنسان... ثم بعد المقدمة يعرضُ الزعيم للقضية عرضًا قانونيًا فيقول:

«فقدترك ضباط من الإنجليز فى يوم ١٣ يونية الماضى معسكرهم بالقرب من دنشواى بمديرية المنوفية وقصدوا صيد الحمام فى (الأملاك الخصوصية للأهالى) فأنذر شيخ فلاح المترجم المرافق لهم بأن الأهالى قد استاءوا فى العام الماضى من صيد الضباط الإنجليز لحمامهم، وأنهم ربما زادوا من غضبهم وسخطهم لو عادوا إلى الصيد فى هذا اليوم».

«ورغمًا من هذا (الإنذار) فإن الضباط أخذوا يصطادون، (وأُطلقت العيارات النارية وجرحت امرأة وحُرق جرن) فاجتمع الفلاحون من كل مكان ووقعت مشاجرة بينهم وبين الإنجليز، وجرح هؤلاء فيها ثلاثة من

المصريين وجرحَ المصريون ثلاثة من الضباط الإنجليز وقد تخلّص أحد المجروحين وهو الكابتن «بول» من المعركة وقطع بكل سرعة خمسة كيلومترات حيث كانت حرارة الشمس بالغة (٤٢م°)، وسقط بعد ذلك ميتًا بضربة الشمس وما علم العساكر الإنجليز بما وقع لضابطهم حتى هجموا على قرية «سرسنا» المجاورة لدنشواى وقتلوا فلاحًا بدق رأسه....!!!

«هذه هى الوقائع، وما علمها أصحاب الأمر من الإنجليز حتى فقدوا الرشد.. وبدلاً من أن ينظروا إلى الحادثة بسكون جأش ككل المشاجرات والمعارك، بالغوا فيها وجسّموها، وأعلنت الصحف المخلصة للاحتلال قبل المحكمة بأن العقوبات والعبرة ستكون هائلة...!!! فلم يكن العدل هو المنشود فى المسألة... بل الانتقام الفظيع..!!

فمصطفى كامل وهو رجل قانون - سجل كثيرًا من المخالفات التى وقع فيها هؤلاء الضباط وأولها: تركهم المعسكر.

وثانيها: تركهم المعسكر قصد الصيد لا تبررها أسباب...

وثالثها: صيدهم نفسه أمر لا يجوز فهو ملك مخصوص لمعيَّنين.

ورابعها: أن لهم سابقة كهذه فى العام الماضى: وقد سبق إنذارهم على يد فلاح عن طريق مرافقيه المترجم، وهذا يعنى سبق الإصرار والترصد، واليوم أطلقوا عيارات نارية فجرحوا امرأة، وأحرقوا جرنًا فضاعفوا الجُرم جُرمًا.

لو كان هناك عدل لاكتفوا بقتيل، وبجرح ثلاثة مقابل جرح ثلاثة ولو كانت هناك رحمة لما ثاروا لدفاع المصريين عن أرواحهم وأملاكهم لكنهم سارعوا إلى هذا الانتقام الفظيع...!!! ثم يستطرد الزعيم فيقول:

«ونشرت نظارة الداخلية بأمر المستر «متشل» المستشار الإنجليزى قبل المحاكمة بيانًا رسميًا أثقلت فيه كواهل المتهمين وقصدت إلى صرامة التأثير فى المحكمة والرأى العام وبلغ من احتكار إحدى الصحف القائمة بخدمة الاحتلال للعدالة أنها نشرت خبر إرسال المشانق إلى «دنشواى» قبل المحكمة، وقد راع الشعب كلُّ ذلك فأخذ يتساءل عن الحكم الذى يُنتظر صدوره بعد مظاهرة كهذه المظاهرة وقد اجتمعت المحكمة فى يوم ٢٤ يونية، وأى محكمة!!.. محكمة استثنائية لا دستور فيها ولا قانون يربطها، لقُضاتها أن يحكموا بكل العقوبات التى تخطر على البال.. ولا تقبل العفو وأن المرسوم الذى صدر بتشكيلها فى عام (١٨٩٥) بناء على ضغط اللورد كرومر.. لا يسمح لحكومة الخديو مطلقًا بإظهار أية مقاومة. يحمل قارئه على الظن بأن الجيش الإنجليزى الذى ألقت إنجلترا إليه أمر تأييد الأمن فى مصر فى خطر مستمر، جعله فى حاجة إلى محكمة كهذه المحكمة ثم يسرد تفاصيل ونص الحكم إلى أن يقول:

وقررت المحكمة فى حكمها تنفيذ الحكم فى اليوم التالى بحيث لم يمض إلا خمسة عشر يومًا بين الواقعة وتنفيذ الحكم، ويستطرد فيقول: «ففى الساعة الرابعة بعد نصف الليل من يوم الأربعاء (٢٧ يونية) جىء بالأربعة المحكوم عليهم بالشنق. والثانية المحكوم عليها بالجلد (عفت المحكمة عن واحد من المحكوم عليهم بالجلد لأن الطبيب قرر ضعف بنيته وعدم استطاعته تحمله) من شبين الكوم مقر مديرية المنوفية إلى قرية (الشهداء) التى تبعد مسافة أربعة كيلو مترات عن دنشواى، ولبثوا هناك تسع ساعات ينتظرون الانتقام المروِّع، وفى الساعة الأولى بعد ظهر يوم الخميس ٢٨ يونية جىء بهم إلى دنشواى

وكان أصحاب الأمر من الإنجليز قد أُجبروا على تنفيذ الحكم فى محل الواقعة وفى الساعة التى وقعت فيها...!!

نُصبت المشانق ووُضعت آلات الجلد والتعذيب فى وسط دائرة مساحتها (١٠٠) متر وأحاطت عساكر (الدارجون) الإنجليز بالمحكوم عليهم والتفت الخيالة المصرية حول الإنجليز وتولى المستر «متشل» مستشار الداخلية ومعه مدير المنوفية أمر التنفيذ...

وقد تقدم إليهما ابن أحد المحكوم عليهم بالشنق سائلاً مقابلة والده ليتلقى وصاياه الأخيرة فرفضا قبول هذا الرجاء الذى هو أعزّ ما يرجوه الإنسان ويحتمه الشرع والعدل!!

وفى منتصف الساعة الثانية امتطى الجنود الإنجليز خيولهم وأشهروا سيوفهم وبُدئ بعد ذلك بدقيقة فى الشنق.. «فشنق رجل ولبث أفراد عائلته وأقاربه وكل أهالى القريةوهم عن بعد يملئون الفضاء بصراخهم الممزق للقلوب، وُجلد اثنان أمام الجثة»!!

«وتكرر هذا المنظر ثلاث مرات واستمر ساعة من الزمان، منظر وحشى مهيج للعواطف بكى منه بعض الحاضرين الأوروبيين بدموع الحنان وأبدوا النفور الشديد مما رأوا وذهب كل واحد يكرر كلمة أحد المشنوقين «لعنة الله على الظالمين...!! لعنة الله على الظالمين»..!! ثم سجل خلود هذا اليوم«الثامن والعشرين من يونية» وبأية صورة يصوره التاريخ؟ كما سجل وقع الحادثة بأنها أشعلت حقد المصريين وبعثت شعورهم الدفين فانبعث ثائرًا وانطلق مدمرًا . «إن عشرات السنين كانت أقصر من أن تحيى شعور الشعب كما أحياه هذا الحادث، ولقد كان من المستحيل على أعداء إنجلترا أن يصلوا إلى النتيجة الحالية بعد جهاد خمسين عامًا»(٦).

ثم يتناول الزعيم حالة البلاد وما انتابها بقوله: «عمَّت مصرَ كلها عواطف الانفعال والسخط عندما استفاضت أنباء تنفيذ الحكم فى دنشواى ولقد كان من المستحيل على أعداء إنجلترا أن يصلوا إلى النتيجةِ الحالية بعد جهاد خمسين عامًا ولكن من العجيب أن يكون الموجودون لها هم رجال من الإنجليز... وقد أنشأ الشعراء المصريون عن حكم دنشواى أشعارًا تُخلّد ذكرى المناظر الوحشية التى أُهينت فيها المدنية والإنسانية «والعدل بأقصى الصور المهيجة للضمائر والنفوس».

ثم يتوجه مصطفى كامل بهذه الأسئلة الاستنكارية فيقول: «وإنى جئت اليوم أسأل الأمة الإنجليزية والعالم المتمدين إذا كان يصح التسامح فى إغفال مبادئ العدل وشرائع الإنسانية إلى هذا الحد؟»..!! «جئت أسأل الإنجليز الغيورين على سمعة بلادهم وكرامتها أن يقولوا لنا إذا كانوا يَرون بسط النفوذ الأدبى والمادى لإنجلترا على مصر بالظلم والعسف وصنوف الهمجية؟».. «جئت أسأل الذين يجاهرون فى كل آن ذاكرين الإنسانية مالئين الدنيا بعبارات الانفعال والسخط إذا حدثت فظائع فى بلاد أخرى دوّن فظيعة دنشواى ألف مرة، أن يُثبتوا صدقهم وإخلاصهم بالاحتجاج بكل قوة وشدة على عمل فظيع يكفى وحده أن يُسقطَ - إلى الأبد - تلك المدنية الأوروبية فى أعين العالم كافة»... ويمضى متسائلاً:

«جئت أسأل الأمة إذا كان يليق بها أن تترك الممثلين لها فى مصر يلجئون بعد احتلال دام أربعة وعشرين عامًا إلى قوانين استثنائية ووسائل همجية - بل وأكثر من همجية - ليحكموا مصرَ، ويعلموا المصريين ماهية كرامة الإنسان؟»....!!!

ثم يواجه ادعاءاتهم فيقول: «إننى معجب بكل إخلاص وشكر واعتراف بالجميل بالنواب والكُتّاب الإنجليز الذين نادوا بأعلى صوت معلنين مزيد غضبهم من هذه الرواية المخزية الشنيعة التى مثلت فى مصر، ولكن لما رأى السير «إدوارد جراى»(٧) أن الرأى انتقاد لهم وأنه قضى على سياسة اللورد كرومر، وقف فى مجلس العموم، وتكلم عن التعصب الإسلامى فى مصر، وسأل النواب بكل رجاء وإلحاح ألا يشتغلوا بمسائل مصر حتى لا يضعفوا سلطة الحكومة المصرية، أو بعبارة أخرى سلطة اللورد كرومر الحاكم المطلق فى مصر أمام خطر أُصرِّح أنا علنًا بأنه موهوم..!!

إن هذا الخطر الموهوم ليس فى أيدى أصحاب الأمر من الإنجليز إلا وسيلة لتسويغ هذه الفظيعة المستنكرة وفظائع أخرى تقع فى المستقبل، إنه لا وجود لهذا الخطر، وما الغرض من هذه الفظائع إلا إحداثه..!! وإنى أؤكد بحق أقدس شىء فى الدنيا أنه لا وجود للتعصب الدينى فى مصر، نعم إن الإسلام سائد فيها لأنه دين الأغلبية العظمى، ولكن الإسلام شىء والتعصب شىء آخر، لقد انخدع السير «إدوارد جراى» فى هذه المسألة وإنى أرجوه أن يفكر لحظة فيما يأتى:

هل لو كان فى مصر تعصب أكانت تستطيع إنجلترا أن تحاكم مسلمًا أمام محكمة استثنائية مؤلفة من أربعة قضاة مسيحيين وواحد مسلم؟.

هل تنفيذ الحكم فى دنشواى بتلك الصورة الهمجية لم يكن كافيًا وحده لإشعال نار التعصب المدمرة الصاعقة لو كان له وجود...؟

ألم تكن هذه التحريضات كافية لإخراج الشعب المصرى عن أطواره وانفجار ذلك التعصب المزعوم لو كان هنالك تعصب حقيقةً؟»..

لماذا لم يُثَر التعصب الذى تكلم عنه السير «إدوار جراى» معارك كمعركة دنشواى أثناء مسألة «طابه» حيث كانت الأغلبية الكبرى من المصريين فى جانب تركيا مع أن الجنود الإنجليز كانت تمر دائما فى كل جهة بكل أمان واطمئنان؟».

لقد أثبتت المرافعات فى قضية دنشواى بكل إفاضة وبيان أنه لا دخل للإسلام فيها وأن الضباط الإنجليز وجدوا عند بعض الفلاحين المسلمين مساعدة وتعضيدًا..!!

ثم يناقش فى لباقة رجل القانون مبررًا التعدى على الضباط قائلاً:

«وبناء على ذلك فإنه لم يكن اعتداء فلاحى دنشواى على الضباط الإنجليز إلا أنهم رأوا إحدى نسائهم مجروحة، فالحكم والتنفيذ يكونان قد بلغا أقصى درجات البشاعة، ويحق للعالم كله أن يقابلهما بمزيد من السخط... وإذا كان الأمر على العكس وأتى الفلاحون ذلك طوعًا لعاطفة حقد دينى أو وطنى فيتحتم على اللورد كرومر أن يعترف بأنهم يمقتون الاحتلال وأن إدارته أدت إلى إخفاق ليس له مثيل...

ثم يعلن على أسماع العالم السياسة التى تتفق وهذا الشعب الأصيل مشيرًا لأهدافه قائلاً: «إن الخطة الوطنية التى يجرى عليها أصحاب النفوذ والتأثير فى الرأى العام المصرى واضحة جلية، فنحن نريد بفضل التعليم وفضل التقدم إنهاض شعبنا وتعريفه حقوقه وواجباته، وإرشاده إلى المقام اللائق به فى العالم، وإننا أدركنا من أكثر من قرن أنه لا يمكن للأمم أن تعيش عيشة كرامة إذا لم تسلك طريق المدنية الغربية»... «وإننا أول شعب شرقى صافح أوروبا.. وإننا بالتعليم

والتقدم والفكر الحر الراقى ننال احترام العالم وحرية مصر... ومقصدنا الذى نرمى إليه هو استقلال وطننا.. ومحال أن يوجد شىء ينسينا ذلك المقصد الأسمى».

هكذا يحدد هدفه ويوضح جوانب إيمانه بالله تعالى وبالدين الإسلامى... إيمان واعتزاز فوق شبهة تعصب الدين، فوق أراجيف المرجفين وأباطيل المبطلين، ويتحقق هذا فى تحليله لعطفه على الشعوب الإسلامية قائلا: «إن عطفنا على الشعوب الإسلامية لأمر طبيعى لا تعصب فيه، وأنه لا يوجد مسلم مستنير واحد يظن لحظة واحدة أنه من الممكن اجتماع الشعوب الإسلامية فى عصبة واحدة ضدأوروبا والذين يقولون ذلك إما يجهلون أو راغبون فى إيجاد هاوية بين العالم الأوروبى والمسلمين»...

وهو يشير إلى: موقع مصر ومكانتها بالنسبة للعالم أجمع، الأمر الذى يستحيل معه أن ينظر إليها الاستعمار نظرته إلى مجاهل إفريقيا مثلا.

«إن لمصر مكانًا خاصًا بها فى الشرق فهى التى وهبت العالم قناة السويس وفتحت السودان للمدنية، وفيها طبقة راقية الفكر ومن المستحيل أن تُحكم مصر وهذا حالها كما تحكم بلادٌ بعيدة مختبئة فى أعماق إفريقيا، وليس بينها وبين أوروبا اتصال... إن الإنجليز ينفعلون ويهيجون ضد ما يجرى فى جهات الكونغو وغيرها من البلاد؟ «فكيف يسمحون إذًا بحدوث أفظع الجرائم فى مصرَ؟»..

«إنه من الواجب على أوروبا كلها: أن تهتم بمصر فإن مصالحها فيها جسيمة وكثيرون من رعاياها جمعوا ثروات كبيرة فيها وإن القوانين

الاستثنائية والاعتساف لا يؤديان إلا إلى هياج الشعب المصرى وخلق عواطف مخالفة بالمرة لعواطفه الحالية».

صدى المقالة فى العالم الأوروبى

لقد كان لهذه المقالة دوىٌّ عظيم إذ تناولتها الصحف على اختلاف أنواعها وأماكنها فقد علقت عليها معظم الصحف الأوروبية والبريطانية مما أثر على العالم الأوروبى والإنجليزى وتزلزل بعدها عرش (اللورد كرومر) فى مصر وإنجلترا(٨)، كما نصحت جريدة (الهيرالد تريبيون) البريطانية بمنح مصر الاستقلال، وكتبت مجلة المجلات بقلم المستر «ستيد» مقالة ذكَّر فيها الإنجليز بوعودهم منذ بداية الاحتلال، كما أخذتْ الصحف العالمية تسهب فصولاً مطولة عن مصر والمسألة المصرية، وانبرى بعضُ النواب فى البرلمان البريطانى يُلقون التبعات على «اللورد كرومر» كما طلب السير «إدوارد جراى». وبلهجة شديدة - عدم البحث فى مسألة دنشواى بحجة التعصب الدينى القاطن فى نفوس المصريين، فلولاه لما وقع الاعتداء على الضباط البريطانيين، وظل صوتُ الزعيم مدويًا حتى أعلن بعضُ النواب الأحرار أنهم لا يسكتون عن مسألة تهم الإنسانية وشرف إنجلترا..!!

ولم يكتف الزعيم بهذا القدر من التشهير بإنجلترا بل غادر فرنسا ليذهب إلى «لندن» ليتصل بحملة الأقلامْ هناك وليشرح لهم موقف مصر ليدفع عنها تهمة التعصب، ويترجم مقالته من الفرنسية إلى الإنجليزية ويوزعها على جميع الوزراء وأعضاء البرلمان ورجال الصحافة هناك..

ويواصل الزعيم مقالاته الوطنية فيكتب فى جريدة اللواء(٩): «أما كراهة المصريين للاحتلال البريطانى فأمر طبيعى جدًا وقد ظهرت أثر هذه الكراهة فى ظروف شتى والمسئول عنها والسببُ فيها هم الإنجليز المسيطرون على السياسة الإنجليزية لأنهم خلفوا الوعود والعهود التى قدمت للعالم كله بشأن الجلاء عن مصر».

وفى مقال آخر بعنوان: «ارفعوا أصواتكم» كتب يقول:(١٠).

«لقد لبثتْ الأمة الإنجليزية عدة سنوات تعتقد فيما تنشره الصحف عنها، ويقول السياسيون لها: إن الأمة المصرية فرحةٌ بالاحتلال، حتى حدثت حادثة دنشواى واهتزت لها المملكة البريطانية كلها وتساءل القوم في كل نادٍ: «إذ أن الأمة المصرية غيرُ فرحة بالاحتلال «نعم إن الأمة المصرية نافرةٌ من الاحتلال، ومن واجبات المصريين أن يُعلنوا أسباب ذلك النفور ويقولوا بأعلى أصواتهم: «إن أكبرها وأهمها ضياعُ استقلالنا، ذلك الاستقلال الذى أخذته إنجلترا وأقسمت أن ترده إلينا قويًا مصونًا لا يستطيع أحد أن يمسَّه بسوء وليقل المصريون للأمة الإنجليزية إنه إذا كان ساستها قد نسوا أو تناسوا عهودهم ووعودهم فإننا معشر - المصريين - لم ننسها، ليقولوا بحرية وصراحة واستقلال كل ما يعتقدون وما به يشعرون، حتى تعلم الأمة كلها أنهم أحياءٌ يناضلون عن حقوقهم ولا يقبلون المذلة والعار..»».

لقد نجح «مصطفى كامل» فى حملته وكان من نتائج جهاده استقالة كرومر، فكتب فى اللواء تحت عنوان:

استعفاء اللورد كرومر(١١)

«حدثت حادثة دنشواى فدوى دويها فى العالم كله وقامت لها قيامة أحرار إنجلترا فأوعز فى المتحدثين فى أنحاء الأرض مقدار بشاعتها

وفظاعتها وشدة انفعال المصريين من الحكم والتنفيذ فيها حتى ذاع وشاع: أن مدة إقامة اللورد فى مصرَ محدودة وأنه لا يلبث أن يترك وظيفته لما أصاب سياسته من الخيبة والفشل»... وفى مقال آخر عرض فيه لمساوئ اللورد مدة الإقامة فقال:[١٢].

«ماذا نذكر من سياسة اللورد كرومر وخطته فى مصر؟ سنذكر أنه الضارب لعرش الخديوى بيدٍ من حديد - نذكر أنه الذى فتح «السودان» برجالنا وأموالنا ثم جرَّدنا من كل حق وسلطة فيه، نذكر أنه الذى سلب الحكومة المصرية والوزارة الأهلية كلّ وجود ونفوذ وحياة..».

ثم عرض لوجوب اتحاد الأمة فقال:

«مهما كانت الخطة التى تنوى الدولة الإنجليزية اتباعها فى مصر فإننا لا نرى لبلادنا سلامة ونجاحًا إلا فى اتفاق المصريين واتحادهم وتضامنهم فى المطالبة بحقوقهم والمناداة بميولهم بكل همة وصرحة وبلا خوف ولا حياء؛ لأن الأمة لا تبلغ مأربها إلا إذا كانت قادرة على نيله وليس فى مظاهرة القوة أرقى وأسمى من المجاهرة بالحق والدفاع عن مصالح الأوطان وبكل قلم ولسان»..

خطبة مصطفى كامل

ويظل الزعيم على الدرب منددًا بسياسة الاحتلال فيلقى خطبته المشهورة بمدينة الإسكندرية يتناول فيها الحادثة ويجعلها منطلقًا لكشف سياسة إنجلترا ثم يطالب بالعفو عن سجناء دنشواى فيقول:[١٣].

«إن (إدوارد جراى) : يقول بأعلى صوته فى مجلس العموم الإنجليزى: إن اللورد كرومر لم يعامل المصريين كأمةٍ مُنحطة، فماذا

كان يريد أن يعمل اللورد ليعترف بأنه عاملها كذلك؟ أليست دنشواى وحدها بكافية لأن تثبت مدى الدهور والأجيال أن الإنجليز أهانوا المصريين إهانة لا تُنسى أبدًا، ولا يمكن اختلاف اثنين من المنصفين فى الحكم عليها..؟».

ينادى الساسة الإنجليز بأن الحكم فى دنشواى كان سياسيًا وكان القصد به تأديب الأمة، وإذا طلبت الجماهير العفوَ عن المسجونين بسبب هذه الحادثة قالوا: «إنما أنتم تطالبون العفو لتعدُّوه انتصارًا على السياسة الإنجليزية»!! فهل هذا هو العدل الذى تجود به علينا المدنيةُ البريطانية..؟ هل هذا هو الإنصاف الذى تريد أن تعلمنا إياه الدولة الإنجليزية..؟ أيعاقب أهالى دنشواى بتلك الشدة المتناهية لأن الأمة لم تكن مع الإنجليز فى حادثة العقبة..؟ وهل الحكومة التى تخلط بين السياسة والعدل إلى هذا الحد فتُعاقب البرىء وتكافئ المجرم تستحق أن يمدحها مادحٌ ويثنى عليها إنسان..؟ وكيف يُدهشها قيام المعارضين فى وجهها واعتراضهم عليها بكل شدة وقوة..؟

إننا لو كنا نريد دوام العداء والنفور.. لطلبنا بقاء مسجونى دنشواى فى سجونهم الأعوام الطوال لأنه كلما مرت السنون وهم على حالهم تجددت آلام الأمة، وجرى ذكرى دنشواى على كل لسان وهكذا سياسة العناد لا تثمر إلا عكس المقصود منها، ولا تؤدى إلا ضد الغاية المطلوبة إن الرجال لا يحكمون بمثل هذه السياسة ولا تدبر شئونهم بمثل هذا الاعتساف..

إذا كان الإنجليز يجهلون أحوال المصريين، وما يدور بينهم فليعلموا أن فى هذه الأمة رجالاً مستنيرين رشيدين يعادلون أكفأ العقلاء من الإنجليز، وأنهم يغارون على الحق والعدل ولا يرضون بأن تكون

الأحكام فى البلاد قائمة على الغايات والأهواء، وهؤلاء الرجال هم القوة المفكرة التى تحترمها كل حكومة فى العالم وتسترشد بآرائها فى المواقف الحرجة، «إننا نقدم العدل والرحمة على السياسة، ولذلك طلبنا ونطالب بأعلى أصواتنا العفو عن مسجونى دنشواى»... ونقول فى صراحة:

«إن السياسة الرشيدة التى تعمل لتخفيف الآلام الناشئة من هذه الحادثة المزعجة، لا العمل على تقويتها وزيادتها بدعوى أن طلاب العفو ليسوا من أنصاف الاحتلال . ألا فاقرءوا معاشر الإنجليز التاريخ الإسلامى وانظروا فى أعمال أولئك الخلفاء العظماء الذين كان الواحد منهم ينشد الحقيقة فى كل وقت وفى كل مكان ويمتثل للحق ولو كان قائلُه من أحقر الناس . .. فخليق بالإنجليز وهم الذين يدّعون أن مدنيتهم سادت كل مدنية أن يذكروا أن رجال المدنية الإسلامية لم يكونوا ليقولوا السياسة فوق الحق بل كانوا يقولون ويؤيدون هذا القول بألف دليلٍ ودليل : «الحق فوق كل شىء».

الخصائص العامة لأسلوب مصطفى كامل:

وبعد هذه الفسحة الطويلة يمكننا أن نقف على أهم السمات والخصائص لأسلوب الزعيم فهو خطيب مُصقع، أوتى حماسة العاطفة وحرارة الوجدان وسعة الإدراك، كما أوتى طابعًا خماسيًا وتدفقًا شعوريًا قلما يجتمعان لأحد!!

ومن المعلوم أن عناصر الأدب[١٤] عبارة عن فكرة تصحبها عاطفة وخيال ممتد أو صورة تصب جميعها فى أسلوب أو قالب خاص.

فأما الفكرة : فأجدها واضحةً فى الأفكار السياسية المتمثلة فيما منَّ الله عليه من سعة الأفق والبصيرة، ولما كانت الأفكار وليدة الاطلاع إذًا فهو من أكثر المصريين حينئذٍ معرفة بعالم السياسة وأكثرهم اتصالا بكبار الشخصيات وأكثرهم ارتحالا إلى كل الجهات... وقد أفاد من هذا كله.

وأما العاطفة: التى صحبت أفكاره فهى عاطفة صادقة وأىُّ صدق ولنتمثل قوله: «إننا نقدم العدل والرحمة على السياسة ولذلك طلبنا ونطالب بأعلى أصواتنا العفو عن مسجونى دنشواى ونقول فى صراحة إن السياسة الرشيدة هى التى تعمل لتخفيف الآلام... إلخ».

وأما الخيال والصورة: فقد كان يأخذ منها بقدر، إذ أنه لا يتوخى درجةً عاليةً من جمال العبارة كما يتوخّاها الأديب الأريب الذى يرى الجمال غاية فى ذاته، وهدفًا فى خَطابته ومقالاته..

وأما أسلوبه: فقد تناول الميَّسر منه والمتداول بين طبقات المتعلمين، وأعنى بهذا أنه كان سلسًا معتدلاً، فهو لم يبلغ حدًا يستوقف الناقد أو درجة ترهق القارئ والسامع، فلم يستدع لأسلوبه مايستدعيه النظم المقفى أو الحكمة المأثورة من كلمات أو نظرات فاحصات بل عالج قضيته بأسلوب مناسب للمقام؛ ولهذا كان لأسلوبه فى نفوس سامعيه تأثير الأدب الخطابى الواقعى..

ولاينسى الناقد أن «مصطفى كامل» كان من رجال القانون والصحافة ولكل منهما ميزان خاص لا يُقاس بدونه، وأن لكل فن خصائص يستقل، بها ويظهر من خلالها وإن صح أن تستدين بعضها من الأخرى، ومع أن الرجل كان بطبيعته ميالاً إلى الخطابة إلا أنه حاز قصب السبق فى ميدان الصحافة والقانون.

وهناك ميزان آخر يوزن به عمل الأديب وهو أن يقاس العمل بقوته وجماله وبمدى تمسكه بالحق.. ولو وقفنا ثانيةً لنزن أسلوبه بهذا الميزان أو من تلك الجهات لوجدنا أنه: من جهة القوة: فأسلوبه قوى، ولعل مصدر قوته راجع إلى: شجاعته الأدبية، وسمو عاطفته.

وأما عنصر الجمال: فما تكلَّفه الرجل ولا قصده، لأنه فوق طاقة رجل قانونى، صحافى أو رجل أعمال يعالج قضايا مختلفة فى أماكن متعددة؛ إذًا فأسلوبه ـ كما ذكرت آنفًا ـ متوسط التعبير فلا هو بالهابط العامى ولا بالأنيق العالى.

وأما الحق: فقد عشقه الرجل وسرى فى دمه وتعددت فيه مصادره، فهو خطيب صادقٌ فى دعوته، ومحامٍ شريفٌ بمهنته، وزعيم مخلصٌ فى حركته مؤمنٌ بمبادئه، قد سمت فكْرته، وصدقت عاطفته، وتوحد هدفه، فلم يتلون، وهذا ما تجدر الإشارة إليه، وما زاده قدرًا فى ميزان النقد الحديث..

ولعلى بعد هذا كله أخلص إلى أن أسلوبه فى مقالاته هو أقرب إلى خطيب منه إلى أديب، وهو كأى خطيب له سمات خطابية يمكن أن نستخلصها وأهمها:

١ ـ هو خطيب حاول إقناع سامعيه بالحوادث الجارية، واعتمد على الموازنات بين الأفكار والمعانى ذلك للإقناع والتأثير المطلوب.

٢ ـ اعتمد على التكرار والإشارة وتوجيه المقال أو الخطاب فى حماسة إلى القراء وكأنه يراهم أو يخطب فيهم.

٣ ـ الإسهاب النسبى فقد أسرف فى اللفظ بما يتماشى مع الآلام واختلاف مستويات الجماهير.

٤ ـ كان صاحب اللواء كثير التهكم بالاحتلال فهو ساخر يميل بطبيعته للحزم والجد، حزين متواصل البكاء على مصر والإسلام.

٥ ـ قليل الأخذ من معين الأدب الخالص، زاهد فى كلام الفلاسفة والأدب وهو كما ذكرت آنفًا رجل أعمال وأسفار الأمر الذى أبعده عن الزينة اللفظية، فأسلوبه كما يقال: «نفثة مصدور».

محمد فريد(*)

وشاء الله أن تظل الراية مرفوعة وكان لابد لمن يحملها أن يكون مؤهلا بصفات تؤهله لسد هذا الفراغ الجسيم... ولقد كان خير خليفة له هو البطل الشهيد محمد فريد بك.

اتجهت الأفكار للمطالبة بالمجلس النيابى بعد حادثة دنشواى فتوجه بعض الوطنيين بهذا إلى اللورد كرومر فاستنكر الشهيد فريد هذه الوسيلة ذلك لأن مركز إنجلترا بمصرَ غير شرعى لا يعترف به «فريد» ولا يجوز لأى مصرى ذلك الاعتراف فكتب يقول:[١٥].

«أطلعت بلوائكم الصادر أمس على كتاب: إلى جناب قنصل «جنرال بريطانيا العظمى» موقَّع عليه من بعض إخواننا المصريين يطلبون فيه إنجاز ما وعدت به دولته.. إلى أن يقول: «وعلى أى حال فمن حق الأمة أن تقوم بهذا الواجب بنفسها فتقدم العرائض إلى سمو الأمير مباشرة، لا إلى قنصل دولة محتلة بغير حق شرعى لا تكسبه القوة إياه مهما طال أمد الاحتلال فإن الحق يعلو ولا يُعلى عليه»..

ويوم استقالة «كرومر» وحين أوعزت الحكومة بإقامة حفل تكريم بالأوبرا الأمر الذى استاءت له نفوس المواطنين كتب أيضًا فى هذا الصدد مقالة حامية، تزخر بالوطنية تحت عنوان:

المطالبة بالحقوق ـ الفرق بيننا وبينهم[١٦]

«أمانحن فيوجد من بيننا من يقول بمجاملة الظالم القاهر وتقبيل اليد التى تضرب بها فيقوم منا نفر «ولو أنه قليل» للاحتفال بوداع

عميد الدولة المحتلة، أى الرجل الذى سعى لهضم استقلالنا وجعل بلادنا مستعمرة إنجليزية، وسنسمع الخطب التى ستلقى فى هذا الاجتماع وهى لابد أن تكون باللغة الفرنسية أو الإنجليزية وكلها بإطراء وثناء على من هدم التعليم بلغة البلاد!! وسعى جهده فى إضعاف اللغة العربية بالمدارس..!! ونحن ممن يرى أن كل عامل مهما كان بسيطًا يعمل «للورد كرومر» لا يعتبر سياسيًا مهما قال أنصار الاحتلال لأنه: عمل يقوم به بعض من غمرهم اللورد بإحسانه بل نقول إنه سُبَّةٌ لأرواح شهداء دنشواى ولمسجونيها الذين يرسفون فى القيود والأغلال ضحية لسياسة الفرد ضد رغائب أمته يزيد عددها عن اثنى عشر مليونًا»..!!

«وإذا كان الموظفون المصريون يستحقون اللوم على قيامهم بمثل هذا الاحتفال فالخارجون عن هيئة الحكومة يستحقون هذا اللوم أضعافًا مضاعفةً خصوصًا ومنهم من رزقه الله بسطةً فى الرزق أو نال أعلى الوظائف وأسمى النياشين وأصبحوا ولا مطمح لهم فى الوظائف».

- هكذا أعلن الشهيد أفكاره الجريئة، وسجل استياءه وأشعل نارًا حول الاحتلال وأنصاره ووجه اللوم لتلك الفئة المتغافلة عن حقوق المنكوبين.

خطاب اللورد كرومر بالأوبرا

(فى مايو سنة ١٩٠٧)

وأكتفى بعرض بعض فقراته، قال عن: (حُسن ظنه بالمصريين وحسن اعتذاره عنهم)(١٧).

«فبمساعدة الذين ذكرتهم ومساعدة كثيرين غيرهم أظن أننا عملنا عملاً غير ردىء فى ربع قرن من الزمان وإن كان فيه من القصور والتقصير ولكن يقول لى قوم كثيرون: إن المصريين بوجه الإجمال لا يعترفون كثيرًا بالجميل..!! وبالمنافع والفوائد التى لا شك فى أنها مُنحت لهم، فأجيب على ذلك أنى لا أعرف ما يشعر به المصريون من هذا القبيل ولكن فيلسوفًا فرنسيًا قال قولاً أُورد معناه ـ ولست أجزم باقتباس معناه ـ قال: «إذ قاس شعب آلام الظلم والضيم طويلاً لم يكد يبقى له طاقة على الشكر، شكر الذين يخلصونه منها».

«ولا ريب أن أهل مصر قاسوا كثيرًا فى ماضى زمانهم ومهما كان شعور المصريين وكانت حاستهم، ومهما برهن لى المبرهنون وأقاموا علىَّ الحجةَ والدليل فلست بتاركهم يحاجوننى ليخرجونى من الوهم الشريف الذى أنا فيه إنْ صحَّ أنه وهم لا حقيقة، وأعنى بذلك أنه لا يمكن أن أصدق أن المصريين أو أحسنهم على كل حال ينكرون أن يدَ التمدن الغربى التى كانت تستعملها إنجلترا ـ فى الخمس والعشرين سنة الماضية ـ هى التى انتشلتهم من بالوعة البأس بعدما ألقاهم فيها».

إلى آخر ما موَّه به «كرومر» عن خيبة أمله فى الشرق كله وأقول: «لو أحسن الظن لأحسن العمل وهيهات أن يصدر عن أمثاله.... فهو يشيد بأعماله حين أقامته وينكر على المصريين عدم شكره يوم ظعنه ثم يعتذر عن المصريين بقول الفيلسوف الفرنسى، كما يشيد بفضل إنجلترا على المصريين وأنها انتشلتهم من الفقر واليأس والبأس..!! ولقد أثارنى أن مجلة الهلال قد فصّلت وعنونت فقرات هذا الخطاب... كما عددت حسنات اللورد كرومر، ولم تشر بكلمة واحدة

تدينه بهـا رغم مـا فى خطابه من إهانةٍ للمـصـريين وتحـقـيـر للدين الإسلامى...!!!

مقالة الخديو عباس الثانى

قال عن حادثة دنشواى: «لست أبغى أن أنشر هنا من جديد فصول المأساة فإن من المعروف أن الضباط الإنجليز المشتركين فى المناورات كانوا ينتهزون أوقات فراغهم كى يخرجوا للصيد فيقتلوا فى القرى الحمام الأليف ويحملوه ملء الحقائب، وأن الأهالى قد قاوموا وتبادل الفريقان الضربات فلاذ أحد الضباط بالفرار خلال المزروعات، ومات متأثرًا بضربة الشمس.. وعاد بعض الجنود إلى القرية ليقتلوا المزارعين الوادعين، قبل أن يحملوا النبأ إلى رئيسهم، ولم يكن فى الأمر إلى ذلك الحد غير حادث يؤسف له حقًا، ولكن ما كان لينتهى بتلك المذبحة الفظيعة التى تلت المحاكمة.. لو أنه عولج فى اتزان ولم تخن الجميع أعصابهم، وكان كبار الموظفين الإنجليز فى إجازة كما كان الجنرال قائد القوات غائبًا، وأكبر الظن أن ذلك الذى كان يقوم مقامه كان متحمسًا ومتطرفًا.. فقد أضفى على الحادث ثوب المأساة كما أن ممثل «اللورد كرومر» لم يحسن فهم المسئوليات التى أخذها على عاتقه».

«إنى ليستثير ألمى أن أفصل القول فى هذا الحادث الذى حمل إلىَّ البرق نبأه أثناء استشفائى فى «ڤيينا»، فلقد هزَّ نفسى أعنف هزةٍ سواء من جهة موقف الحكومة المصرية».

«لقد كان الواجب أن يقابل سوء تصرف الإنجليز ووحشيتهم فى الكفة الأخرى بوطنية المصريين وحرصهم على كرامتهم، وليس مما يُغتفر للإنجليز بلا ريب أنهم شكلوا محكمة استثنائية كى يحاكموا

فلاحين وديعين لم يرتكبوا جرمًا إلا الدفاع عن حقوقهم وممتلكاتهم ولكن جرمهم فى ذلك لا يقاس بجرم أولئك المصريين الذين قبلوا بغير اعتراض الاشتراك فى تلك المحكمة، وأباحوا للدولة المحتلة تلك الترخيصات التى ما كانت لتجرؤ على المطالبة بها لو أنها أحست من جانبهم مقاومة بسيطة... إن الوزراء المصريين لم تبدر منهم بادرة للتخلص من ذلك الشرف المحزن، شرف محاكمة مواطنين، ولم تند عنهم شفاههم كلمة طيبة واحدة».

«لقد ضحوا للأجنبى دون احتجاج ودون تردد بأولئك التعساء الذين عهدوا إليهم مصيرهم، والذين كان عليهم أن يستمعوا إليهم قبل الحكم عليهم، ولم يشر أحد إلى الظروف المخففة لعمل كان أكثر الجرائم استحقاقًا للعفو وكان فوق ذلك، قد تم من قبل الانتقام له».

«ولا يفوتنى أن أسجل أن المقال الذى نشره (مصطفى كامل) فى جريدة - الفيجارو - الباريسية فى (١١ يوليو سنة ١٩٠٦) قد أحدث دويًا عظيمًا وأثار ضمير العالم.. لقد كان ألمى لذلك الأمر كبيرًا وفادحًا وكم عكر صفوى ليال طويلة، ولم يكن الاندفاع الإنجليزى وضعف الحكومة قد سمح لى بفرصة التدخل إلى وقت القضية «ولقد فعلت المستحيل لتعويض ضحايا حادث دنشواى، الذين لم يشنقوا ولكن اللورد كرومر أبى قائلاً: إن فى ذلك مساسًا بشرف الجيش البريطانى، وكان علىَّ أن أنتظر السير «الدون غورست» كى أصلح من أثر ذلك الشر».

«وكانت لندن بعد حادثة دنشواى المحزنة قد انتهى بها الرأى إلى استدعاء اللورد كرومر، وكان الإنجليز قد أدركوا آخر الأمر كما جرت الأحداث ولما أثارته الرعاية الوطنية عند الشعب من حركة لا تقاوم، إن

يومًا سيأتى فيغدوا جيشهم الذى يحتل مصر غير كاف للمحافظة على الأمن فى البلاد أو لحماية نفسه من هجوم خارجى...

فلنطو هذه الصفحة ويكفى أن الصحافة الإنجليزية والتاريخ قد فضحا منذ ذلك الحين سفاحى دنشواى.. أولئك الذين سلموا المتهمين المساكين للجلادين خارج القانون وخارج الإنصاف والعدالة ولشتى صنوف التنكيل».

هكذا يبدو الخديو عباس متزنًا، وكأنه يمتص غضب المواطنين فطالما راوغهم أو أمهل البريطانيين حتى فعلوا ما أرادوا، وكأن الخديو يتنكر لما قدَّمه للإنجليز من تعاون... ألا يتذكر الخديو عباس انحيازه الواضح للسياسة البريطانية فى حديثه مع المستر «ديسى» وقد نشرته جريدة «الديلى تليغراف» فى مايو سنة ١٩٠٧؟

هل ينكر ثناءه على كرومر، واستعداده للتعاون مع المعتمد البريطانى فى مصر؟ هل ينكر تصريحه بأن الاحتلال البريطانى أفضل من أى احتلال آخر إلى آخر ما فُهم من تصريحاته، ولهذا نجد الزعيم مصطفى كامل يرد عليه فمن أهم انتقاداته الخديو قوله:(١٨) «مما يجب علينا إعلانه والجهر به أمام الملأ كله أن تصريحات الجناب العالى لا تفيدنا بأى حال من الأحوال؛ لأن مركز سموه غير مركزنا على أن مركز كل مصرى صادق الوطنية لا يقبل مطلقًا أن يكون حكم مصر بيد سمو الخديو بمفرده أو بيد المعتمد البريطانى أو بيد الاثنين معًا بل يطلب أن يكون حكم هذا الوطن بيد التابعين والصادقين من أبنائه، وأن تكون نظامات الحكومة دستورية ونيابية».

ثم نشر على الفور باللواء قوله:(١٩)

«قد قلنا مرارًا إن سمو الأمير بعيد عن الحركة الوطنية وأن المجاهدين ضد الاحتلال مستقلون عن سموه كل الاستقلال، فهو إن قال كلمة فى صالح الحركة الوطنية خدم نفسه وعرشه واستمال أمته إليه، وإن عمل ضدها أضر بنفسه وبعرشه ونفّر أمته منه، ولكنه فى الحالتين لا يستطيع الإضرار بهذه النهضة؛ لأنها نهضة المطالبين بالحياة والوجود».

وقد آثرت تأخير هذا المقال، وفصلته عن مقالات «مصطفى كامل» ليكون خيرَ تعليقٍ على هذا المقال.

هوامش

(١) أحمد حلمى: (١٨٧٥ ـ ١٩٣٦) هو أحد رجال الصحافة أيام مصطفى كامل عُرف بأمانة الكلمة بالأسلوب الجزل والتعبير المؤثر الذى جر عليه ويلات الاحتلال فنقل من وظيفته بالقاهرة إلى واحة سيوة ولم يمنعه ذلك من الكتابة فى عنف وصرامة وانتهى به المطاف إلى العمل بجريدة اللواء.

(٢) اللواء فى ٢٣، ٢٤ يونية ١٩٠٦.

(٣) دنشواى والصحافة بقلم محمد نصر ص ٥٧، ٥٨.

(٤) فى كتاب سعد زغلول بقلم العقاد ص ٩٥ طبعة القاهرة.

(٥) اللواء عدد ١١ يوليو ١٩٠٦.

(٦) راجع مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية للأستاذ عبدالرحمن الرافعى.

(٧) وزير خارجية إنجلترا وقتئذ.

(٨) راجع دنشواى والصحافة.

(٩) اللواء ٢ يوليو ١٩٠٦.

(١٠) اللواء يوم ٢٦ يوليو ١٩٠٦.

(١١) عدد ١٢ إبريل سنة ١٩٠٧.

(١٢) المرجع السابق العدد نفسه.

(١٣) فى أكتوبر سنة ١٩٠٧ راجع كتاب «مصطفى كامل» للرافعى ص ٥٠١ : ٥٠٣.

(١٤) راجع أدب المقالة الصحفية فى مصر جـ ٥ للدكتور عبداللطيف حمزة.

(١٥) ولد محمد فريد بمدينة القاهرة يوم الإثنين ٢٥ رمضان سنة ١٢٨٤ ـ ٢٠ يناير سنة ١٨٦٨ قبل ميلاد مصطفى كامل بنحو سبع سنين، نشأ فى بيت رفيع؛ فأبوه أحمد فريد باشا ناظر الدائرة السنوية سنة ١٨٨٦ جهر بميوله الوطنية مبكرًا وأعلن المعارضة ضد الاحتلال، اتصل منذ سنة ١٨٩٣ بالزعيم مصطفى كامل لاتفاقهما فى المبادئ الوطنية وتوثقت عرى الصداقة بينهما على مر السنين فكانا رفيقى كفاح، ومن حسن الحظ أنهما محاميان مخلصان، لذا فقد أنابه الزعيم «كامل» فى الإشراف على «اللواء» وإدارة جريدتى «ليتندر اجيبشين، وذى اجيبشن استاندرد» سنة ١٩٠٧ ذلك عند سفره إلى أوروبا كما

اختاره وكيلاً للحزب الوطنى ثم أوصى بانتخابه رئيسا .. وظل محمد فريد وفيا فى خلافته فلم يبال بالنفى أو التشريد، ولم يتخل عن مبادئه حتى توفى ١٥/ ١١/ ١٩١٩. (راجع محمد فريد للرافعى).

(١٦) راجع محمد فريد للرافعى.

(١٧) فى كتاب محمد فريد للرافعى ص ٣٩ : ٤٠ الطبعة الثانية.

(١٨) الهلال عدد يونية سنة ١٩٠٧.

(١٩) اللواء ٢٦ مايو سنة ١٩٠٧.

الفصل الثالث
نتائج حادثة دنشواى سياسيًا

لا أكون مبالغًا إذا قلت: إنه لولا جهاد الزعيم «مصطفى كامل»[19] لما كان للحادثة من نتائج سوى تغلغل روح الرهبة واليأس بين صفوف المواطنين التى خيَّم عليها الوجوم «وهذا الشعور المكبوت لم يكن ليثير الأمة ولا ليوقظ فيها روح الإباء والمقاومة بل كان من شأنه لو دام أن يزيدها يأسًا وهوانًا واستسلامًا، ولكن عبقرية مصطفى كامل قد أبدلت من هذا اليأس قوة، ومن هذا السكوت حياة وثورة»[20].

النتيجة الأولى : الانتفاضة الوطنية واشتداد ساعدها:

لقد انتفضت المظاهرات الشعبية وعمت البلاد شرقًا وغربًا وجنوبًا وشمالاً تنادى بكرامتها وبحقها مستغيثة بالضمير الإنسانى فى كل مكان.

وسرى هذا الشعور سريان الماء فى العود الأخضر حتى وصل إلى أصحاب (الجلاليب الزرقاء) التى اعتز بها اللورد كرومر ومن على

أصحاب (الجلاليب الزرقاء) التى اعتز بها اللورد كرومر ومن على شاكلته وقد كانوا يوهمون أنفسهم بحب الفلاحين لهم؛ لذا فقد انخفض الجهر بتلك النغمة الكاذبة كما علموا أن اصطناع المودة للمصريين لا يجعلهم إنجليزًا، ولا ينسيهم الانتماء لمصر وقد أشارت جريدة اللواء إلى نتائج دنشواى تحت عنوان «الحركة الوطنية» بقولها:(٢١).

«تبقى الآلة الميكانيكية ضعيفة الحركة حتى تزداد القوة البخارية المسلطة عليها فتمدها بروح منها تديرها سراعًا طبقًا لمشيئة صانعها الذى من الحديد سواها، وكذلك كانت الحركة الوطنية فى مصر غير قوية كتلك الآلة الميكانيكية قبل أن تزداد قوتها البخارية... فلما حدثت حادثة دنشواى زادتها قوة فظهرت بأبلغ المظاهر وأقواها..

النتيجة الثانية: اهتمام الصحف العالمية بمسألة مصر.

وهى رد فعل للنتيجة الأولى: لقد كانت الصورة الفوتوغرافية أو الخيالية عن مصر أنها مستعمرة شأنها شأن المستعمرات الإفريقية أو تلك التى تعيش فى ظلال القرون الوسطى فقيرة مظلمة..

واليوم: وبعد المأساة أصبح وللمرة الأولى يُردد اسم مصر فى الصحافة العالمية وأصبحت صورتها «أمة مكافحة» وأصبحت الصحافة تردد (فشل سياسة كرومر فى البلاد).. كما رددت سخط البلاد على الاحتلال، وكذلك أعلنت عن ذلك البركان المتمثل فى الحركة القومية الدائبة بين «أبناء الشعب المصرى»؛ ولهذا كله نجد رد الفعل والصدى البارز فى صحف العالم (وأصبحت المسألة المصرية من أهم الموضوعات التى تشغل صحف أوروبا، وأصبحت المقالات والرسائل

والبحوث المستفيضة لا تفتأ تصف حالة مصر وتطالب بحقوقها، وتصور المصرى كأنه أبو الهول أو المارد المصرى «هب مزمجرًا مستهزئًا بالموت والأخطار»(٢٢).

النتيجة الثالثة: إعلان إنجلترا عن تغيير سياستها فى مصر:

لقد كان إزاء موقف البلاد وتصميم المواطنين الذين أعلنوا الحرب شعراء وأطلقوا ألسنة حدادًا وسيروا حقدهم على العدو نارًا ثم ثأرًا أى ثأر على صفحات الصحف والمجلات مطالبين بكرامتهم...

وكان لابد على حكومة بريطانيا أن تعلن عن تغيير سياستها فى مصر (واعتقدت أن بقاء اللورد كرومر فى منصبه أصبح نذير الخسران لاسيما وقد أصيبت سياستها على يديه بالوهن والخفقان، كما اعتقدت بأن اعتمادها على وزارة «مصطفى فهمى» لا يثبت أقدام الاحتلال.. إذًا فلا مفر من التغيير والتبديل فى سياسة إنجلترا فى البلاد)(٢٣).

النتيجة الرابعة: إعلان عزل اللورد كرومر:

فلقد رأت إنجلترا إنقاذًا لسمعتها، وتخفيفًا لهياج الشعور الوطنى، واتقاء للحروب التى كالتها الصحف الوطنية المتحررة داخل البلاد وخارجها، وإرضاء للشعب، وإسكاتًا للسخرية بل والاتهامات التى وجهت إلى اللورد كرومر... رأت: عزل (كرومر).

«وقد استقر رأى الوزارة البريطانية برئاسة «السير هنرى كامل بازمان» زعيم الأحرار على هذه النية عقب استفاضة الأنباء عن فظائع التنفيذ، ولكنها أرجأت تنفيذ نيتها حتى يعود اللورد كرومر إلى مصر

استبقاء لكرامة رجالها، وقد عاد إلى مصر مزودا بتعليمات جديدة تبعًا لتغير سياسة الاحتلال كما أسلفنا ثم قدم استقالته فى إبريل سنة ١٩٠٧ عقب تقديم آخر تقرير له عن شئون مصر سنة ١٩٠٦»[٢٤].

وعلى أية حال فقد تهاوى كرومر وزل عرشه تحت ضربات المقالات التى كالتها له الأحرار، أمثال الزعيم (مصطفى كامل) فقد كان يصدر ثلاث صحف يومية بثلاث لغات مختلفة . وظل هكذا ومن تبعه من المصريين والأوروبيين حتى تهاوى كرومر وأذنابه.. وخرج من مصر مذمومًا مدحورًا تشيعه اللعنات إلى يوم الدين.

وهكذا تحطم تمثال الجبروت، وعلى أية حال فقد كان اعتزال «اللورد كرومر» لمنصبه نصرًا أىَّ نصر للحركات الوطنية على اختلاف مناهجها وأساليبها.

خامسًا: تأليف وزارة بطرس غالى:

وتبعًا لسياسة التغيير الإنجليزية إزاء الموقف الوطنى فى البلاد: رأى الاحتلال ضرورة إحداث تغيير وزارى لعل تلك الوزارة الجديدة لا تُتهم بمؤازرتها للاحتلال كما كان الحال من قبل فأوعزت إلى مصطفى فهمى بتلك الفكرة، وسرعان ما تقدم باستقالته فى ١١ نوفمبر سنة ١٩٠٨م.. وتعلل بعجز مقدرته على تحمل أعباء الوزارة وفى الوقت نفسه أوعز الخديو عباس إلى بطرس غالى وزير الخارجية بتأليف وزارة جديدة، أعضاؤها الجدد هم: محمد سعيد ـ حسين رشدى ـ إسماعيل سرى ـ أحمد حشمت.

واثنان من الوزارة السابقة هما: سعد زغلول ـ بطرس غالى.

إذاً فهى فكرة إنجليزية وتمثيلية أوروبية قام بتنفيذها «مصطفى فهمى»(٢٥) وأدركت الأمة الواعية أن تأليف تلك الوزارة ماهى إلا نتيجة حتمية من نتائج المأساة «على أن هذه الوزارة لم تلبث أن تكشفت نياتها، فتبين أنها وليدة سياسة الوفاق، تلك السياسة التى كانت ترمى إلى محاربة الحركة الوطنية بطريقة جديدة تختلف عن الطريقة السافرة التى كان يتبعها اللورد كرومر ونعنى بها الطريقة المقنعة التى اتبعها السير غورست إذ يتوارى فيها الاحتلال خلف الوزارة المصرية ويفعل ما يريده باسمها»(٢٦).

سادسًا : تعيين سعد زغلول(٢٧) باشا وزيرًا للمعارف.

ولا أكتفى بالإشارة إلى تعيين (سعد زغلول) فى وزارة «بطرس غالى» بل أضع قرار تعيينه تحت الدرس والفحص، فتبعًا لسياسة التغيير إزاء الموقف الوطنى فى البلاد رأى الاحتلال ضرورة تملق المصريين ذلك لتهدئة الخواطر ومداراة للحركة الوطنية بدءوا يتجهون فى التفكير إلى إسناد بعض المناصب الكبرى إلى بعض المصريين، ووقع الاختيار على سعد، ومما لاشك فيه أن تعيين سعد زغلول كان من اقتراح اللورد كرومر قبل رحيله عن مصر، وصدر الأمر الخديوى بتعيينه فى (٢٨ أكتوبر سنة ١٩٠٦م).

أى بعد أربعة أشهر من وقوع المأساة، وكان مستشارًا بمحكمة الاستئناف منذ سنة ١٨٩٢ وإنه لمن الوفاء أن نذكر ما لمصطفى كامل من جهد فى ذلك التعيين، فى هذه الملابسات تدل دلالة قطعية على أن تعيين سعد وزيرًا للمعارف كان أحد نتائج حادثة دنشواى، وقد تلقت الأمة الواعية وزارة سعد على هذا الاعتبار وفهمت أنها خطوة تعنى الاستسلام والخضوع للوطنية المصرية، ولا تعنى تسليم الوطنية لخطة

الاحتلال أو سطوته كما زعم بعض خصوم سعد «وإنه لمن لغو القول أن يعزى تعيينُه إلى مصاهرة الوزراء وهو الرجل الذى يعتد بنفسه ويعتد به الناس هذا الاعتداد ولم يشتهر بشىء فى حياته كلها كما اشتهر بالشخصية المستقلة والإرادة الحديدية... فمثل هذا الرجل لا يقعُ عليه الاختيار حين يكون المقصود رعاية غيره أو إرضاء صهره وإما يقع على رجل إمعة لا خطر له ولا يذكر إلا بالإضافة إلى أقربائه، وقد كان منصبه يرشحه للوزارة بغير محاباة بعد أن أصبح فى طليعة المستشارين»[٢٨].

سابعًا : تأسيس الجامعة المصرية

وقد رأى المواطنون أن الثورة قامت على أكتاف مثقفى الشعب أمثال الزعيم مصطفى كامل.. أما غيره فلا يستطيع أن يسأل الإنجليز وهم يَسألون.

ولهذا تنبَّهت أفكار الطبقة المثقفة إلى وجوب المساهمة فى كل ما ينهض بالأمة ويعدها فكريًا للتحرر من البغى والعدوان؛ ولذا فأنا أعتقد جازمًا أن «تأسيس الجامعة المصرية» كان أحد نتائج دنشواى كما أعتقدُ أن أول من دعا إلى هذا المشروع هو الزعيم مصطفى كامل..

وأوَدّ أن أشير إلى عظمة هذا الرجل وإلى الجانب الفعلى فيه يوم أن رفض الاحتفال به عند عودته من الخارج تكريمًا لسيادته على جهاده فى حادثة دنشواى، فقد أرسل إلى أخيه محمد فريد خطابًا من فرنسا فى (٢٤سبتمبر سنة ١٩٠٦م) يعتذر فيه عن هذا الاحتفال متمنيًا أن تتجه دعوة الأمة إلى إنشاء (جامعة أهلية بدلاً من الاحتفال كما أوصى باتحاد الجهود لتنفيذ هذا المشروع ودعا إليه على صفحات

الجرائد فاجتمعت لجنة بمنزل «سعد زغلول» وهو لا يزال مستشارًا فى (١٣ أكتوبر سنة ١٩٠٦م) بقصد تنفيذ المشروع.

ثامنا : الإفراج عن مسجونى دنشواى:

هكذا تكون المصائب بين المصابين وتجمع القلوب (قلوب الحائرين) فيعظم جانبها وتقوى شوكتها.. فما فتئ الزعيم مصطفى كامل يطالب بالعفو عن مسجونى دنشواى فدعا كافة المصريين إلى تقديم العرائض.. (العرائض الاجتماعية إلى الخديو وأقبل المصريون على رفعها، وقد بلغ عددها (١٤٨) عريضة وقع عليها (١٢٦٧٠) من المواطنين على اختلاف أساليبهم، وبهذا رقّ أمام الوطنية وتراجع ليتملق الوحدة المصرية، فزف اللواء بشرى (الإفراج عن مسجونى دنشواى) اعتبارًا من سبتمبر ١٩٠٧م.

وقد قوبل هذا النبأ بالابتهاج والسرور من كل حدب وصوب ولاسيما المسجونون (وحان الحين فخرج المتهمون ينظرون صوب القاهرة ساعين إلى «دار اللواء» قاصدين الزعيم «مصطفى كامل» وقد حملوا له عظيم شكرهم ووافر عرفانهم واحترامهم له على جهاده المجيد)(٢٩). ولكن الزعيم كان طريح الفراش وفى مرضه الأخير فلم يستطيعوا مقابلته. فلما توفى كانت وفاته حثًا جديدًا لإشعال الوطنية وإثارة القضية.

وحسبنا يوم جنازته المثيرة، فقد كانت بعثًا وطنيًا للحركة الوطنية إذ اجتمعت الأمة بمختلف طوائفها وطبقاتها لتوديع الزعيم إلى مثواه الأخير.

وأذكر فى هذا المجال قول أبى العتاهية:

وكانت حياتُك لى عظات ... وأنت اليوم أوعظ منك حيًا

هوامش

(٢٠) اللواء عدد ٢٧ مايو سنة ١٩٠٧.

(٢١) مصطفى كامل: «ولد بحى (الصليبة) بالقاهرة، وفى ١٤ أغسطس عام ١٨٧٤ (أول رجب ١٢٩١هـ) وهو ابن أحد المهندسين الضابط (على أفندى محمد) شعر بواجبه الوطنى ولم يتجاوز السادسة عشرة من عمره فأسس جمعية (الصليبة الأدبية) وكان يقف بها خطيبًا مساء كل جمعة مرتجلا ما تملى عليه البديهة، كما راسل الصحف فى عصره وشاركها الأحداث، برز فى ميدان الجهاد عام (١٨٩٠) ولا ريب فى أنه أول زعيم ناهض الاستعمار بما فطر عليه من روح مؤمنة نفخ بها فى روح أمته فأبدل بأسها قوة، وهو فى سن الرابعة والثلاثين توفى الزعيم بعد أن أكمل ثمانية عشر عامًا فى كفاح دائم» (المرجع السابق وكتاب سيرة مصطفى كامل لفهمى كامل بك شقيق الزعيم).

(٢٢) عندما دخل التاريخ بقلم عبدالرحمن الرافعى طبعة بيروت ص ٢٣٨.

(٢٣) اللواء فى ٢ يوليو سنة ١٩٠٧.

(٢٤) عندما دخل التاريخ بقلم الرافعى بتصرف.

(٢٥) المرجع السابق بتصرف.

(٢٦) فى كتاب مصطفى كامل للرافعى طـ ٤ ـ ص ٢٤٠.

(٢٧) راجع الشهيد محمد فريد بقلم الرافعى. دار الهلال.

(٢٨) المرجع السابق ص ٦٦.

(٢٩) سعد زغلول: ولد سعد زغلول فى قرية إبانه فى أطراف بعيدة عن العواصم التي هي مستقر الحكم والحكام، فى يوليو عام (١٩٥٧م ـ ذى الحجة ١٢٧٤هـ) على أرجح الآراء، نشأ بين الفلاحين وأحس شقاءهم وإن لم يبتل به فقد كان أبوه إبراهيم زغلول عميد بلدته وكبير أصحاب الثراء فيها... تربى في أسرة عزيزة النسب قوية من أبويه المروءة والكرامة والصلابة وصدق العزيمة.. توفي والده وهو في السادسة من عمره فطريد فى دمه الجد والاعتماد على النفس.. اختار لنفسه التعليم الأزهري، وكأنما جاء سعد والإصلاح إلى

الأزهر على موعد . التقى بجمال الدين الأفغانى فكان فاتحة لعهد جديد كان فيه سعد من زعماء الإصلاح، تنقل فى الوظائف المصرية إلى الحكومة ومن العمامة إلى الطربوش ومن دراسة الشريعة إلى دراسة القانون. راجع كتاب سعد زغلول بقلم الأستاذ العقاد.

(٣٠) سعد زغلول بقلم الأستاذ العقاد ص ١٠٠.

(٣١) راجع مصطفى كامل للأستاذ عبدالرحمن الرافعى.

دليل الكتاب

الباب الثانى

النثر العربى الحديث وحادثة دنشواى

دكتور/ محمد حامد شريف

عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية جامعة الأزهر فرع دمياط وعميد المركز الثقافي الإسلامي بدمياط، من مواليد/ أكتوبر/ ١٩٥١ م بمدينة كفر البطيخ ـ دمياط.

ـ تخرج في جامعة الأزهر عام ١٩٧٥م وعمل فيها بالتدريس، وتدرَّج فيها من معيد إلي أستاذ ورئيس قسم الأدب والنقد إلي عميد لكلية الدراسات.

ـ عمل في ثلاث دول عربية هي السعودية واليمن والإمارات العربية، كما عمل انتدابًا بكليات التربية لمدة ست سنوات متواصلة.

ـ له كثير من المؤلفات والبحوث تربو علي عشرين مؤلفًا، كما شارك في تحقيق التراث.

ـ شارك في التدريس لطلاب الدراسات العليا وأسهم في الإشراف والمناقشة لعدد من رسائل الماجستير والدكتوراه في كليات وجامعات مختلفة.

ـ شارك في عضوية عدة لجان في الأمانة العامة للحزب الوطني ونادي أعضاء هيئة التدريس ومحاضرات التوعية والإرشاد بأوقاف محافظة دمياط والدقهلية.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس
WWW. egyptianbook. org. eg
E - mail : info @egyptianbook.org. eg

فى هذا الكتاب ؛ عرض تاريخى أدبى لحادثة دنشواى، وهى كبرى الحوادث الوطنية التى أثارت المشاعر وهزت الضمائر، وأطلقت أقلام الكتاب وأفذاذ الخطباء والشعراء بالشكوى والأنين والثورة والغضب، فكان من ذلك كله رصيد أدبى كبير من المقالات والخطب والأشعار، قمت بجمعها من مصادرها، ووقفت على بعضها بالدراسة الفنية .وكان للصحافة العربية ، والتى تمثلها مصر حينذاك مواقف متباينة قسمتها ثلاث طوائف لكل طائفة منهجها الصحفى تبعاً للتأويل والإفهام

وبهذا فالكتاب سجل حافل بآثار الحادثة وصداها فى أدبنا العربى على اختلاف ألوانه

